

من قصة إبراهيم عليه السلام

تأليف

دكتور محمود محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

أصول الدعوة
من قصة إبراهيم عليه السلام

تاليف
د. محمود محمد محمد عمارة
أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

\

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه مجموعة من الأحاديث عن :

أصول الدعوة
من قصة إبراهيم عليه السلام

ألقيتها عبر إذاعة القرآن الكريم

بالمملكة العربية السعودية

أضعُها بين يدى القارئ الكريم

كما أذعتها

وعلى الله قصد السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل فى
أهمية دراسة التاريخ

عن أهمية دراسة التاريخ ووعى حقائقه يقول ابن خلدون:

(فن التاريخ فن عزيز المذهب . جم الفوائد. شريف الغاية. إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم . والأنبياء فى سيرهم. والملوك فى دولهم وسيادتهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا)[1].

وهو بهذا المعنى (حصيلة سنن تحكم الطبيعة والإنسان والعالم)[2].

وصدق القائل من قرأ التاريخ فقد أضاف إلى عمره أعمارا

والإحاطة بهذه السنن المهيمنة ـ بقدرة الله تعالى على الكون والإنسان تبصير للإنسان . . . الذى يعيش حاضره على ضوء من تجارب البشرية قبله فى رقيها وانحطاطها . . . فلا تزل قدمه على الطريق.

*****

(١) المقدمة: ١٣.

(٢) من مقال للدكتور عماد الدين خليل. راجع المنهج للدكتور عبد العظيم الديب.

اهتمام الأمم
بدراسة التاريخ

وقد اهتمت الأمم منذ القدم بدراسة التاريخ .. ومصاحبة الإنسانية فى مسارها .. على اختلاف بينها فى الدوافع والغايات:

قال «موسى ليفى» رئيس أركان جيش إسرائيل:

(حصلت على دبلوم فى التاريخ الإسلامى لأعرف كيف أحارب المسلمين وانتصر عليهم)[1].

وما يقوله رئيس الأركان ما هو إلا استجابة لما ورد فى البروتوكول السادس عشر: القائل:

(سنقوم بدراسة مشكلات المستقبل وبدراسة التاريخ القديم، الذى يشتمل على مُثُل سيئة أكثر من اشتماله على مُثُل حسنة.

وسنطمس فى ذاكرة الإنسان العصور الماضية التى تكون شؤما علينا.

ولا نترك إلا الحقائق التى ستُظهر أخطاء الحكومات فى ألوان قائمة).

*****

---

(١) عن جريدة الوطن الكويتية.

منهج القرآن

وإذا كان اليهود يدرسون التاريخ دراسة يحرفون فيها الكلم عن مواضعه إلى جانب اكتشاف نقاط الضعف فى خبايا الإنسان . . . وبالذات: المسلم . . . بغية الانتصار عليه . . . فإن القرآن الكريم يدعو إلى دراسة التاريخ دراسة موضوعية مثمرة . . . نبيلة فى دوافعها . . . شريفة فى غاياتها: وذلك قوله تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

فنحن مأمورون بسياحة إيمانية فى الأرض. . . مستغرقين فى مشاهدها . . ناظرين إلى مصير أمم قادها التكذيب إلى الفجور. ثم إلى الدمار لندرك: كيف عاشت حياتها؟وعلى أى منوال نسجت خيوطها؟ وكيف حقت عليها كلمة العقاب طبق سنن الله تعالى فى المكذبين - ليصل بنا النظر إلى رؤية أوضح للحياة . . واعتبار أعمق . . يضبط الخطو فلا نضل ولا نشقى . . . وهذا هو المقصود بقوله «كيف كان» . . لا مجرد الرؤية البصرية السطحية.

(إنها إثارة الفكر البشرى ودفعه إلى التساؤل الدائم والدائب عن الحق. وتقديم خلاصات التجارب البشرية عِبرًا يسير على هديها أولو الألباب. وإزاحة ستار الغفلة والنسيان فى نفس الإنسان. . وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة لكى تظل فى مقدمة قواه الفعالة التى هو بأمسٍ الحاجة إلى تفجير طاقاتها دوما)[2].

ودراسة التاريخ بهذا المفهوم جزء من عقيدة المسلم. وقد شهد بذلك باحثون أجانب مثل: «ولفرد كانتول سميث» الذى يقول:

(إن المسلم يحس إحساسا جادا بالتاريخ. أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر فى الأرض على مقتضاه، ويحاول دائما أن يصوغ واقع الأرض فى إطاره)[3].

من أجل ذلك نرى الآيات القرآنية دائبة التذكير لتظل ذاكرة المسلم واعية

---

(١) آل عمران ١٣٧، ١٣٨. (٢) د. عماد الدين خليل. «التفسير الإسلامى للتاريخ:١٠٦.

(٣) الإسلام فى العالم المعاصر، لأنور الجندى:١٦٣

متفتحة:

﴿أَلَمْ يروْا كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وجَعَلْنَا الأَنْهَار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِين﴾[1].

* **الدروس المستفادة هنا:**

أن هذه الحضارة الزاهرة قد دُمرت بسبب الذنوب التى جعلتها حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

ووعى هذه الدروس متاح لكل من ملك قلبا واعيا وسمعا مصغيا يُتيحَان للإنسان فرصة الاعتبار فرارا من مثل مصير الغابرين.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾[2].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[3].

إنهم يتنادون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .... وفى غفلة العقل الواعى يوسوسون بما يريدون وهما وخداعا...وكان من الممكن أن يُعفى الله تعالى رسله من هذا الكيد...لولا أن مشيئته سبحانه قضت أن تسير الدعوة فى طريق محفوف بالمكاره...وما على الرسول إلا البلاغ والجهاد. والنتيجة على الله تعالى.

إن هذه الحملة المستمرة ... إثارة للقوى الكامنة فى قلوب الدعاة لتَخْرج وتثبت وجودها... وبدون أن تستثير الجسم بالجراثيم ... فلن يكتسب المناعة.

وأيضا فقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يكون ذلك الكيد.. لتتوارى شبهة الباطل افتضاحا .. وتتجلى حجة الحق اتضاحا. !

---

(١) الأنعام:٦. (٢) ق: ٣٦، ٣٧. (٣) الأنعام: ١١٢.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(1).

[ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله]

إن نهاية المؤامرة دائما لصالح الإيمان . . . ومهما غدرَ الغادرون فإن الحق منتصر فى نهاية المطاف.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(2).

وإذا زين لهم الشيطان أنهم هم الغالبون. .فذلك إفكهم. .وما كانوا يشعرون أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾(3).

وقد يطول ليل الظلم . . . وقد يستوعب العمر كله . . . بيد أن ذلك لا يعد انتصارا للباطل . . وسوف يشرب المعتدون المستهزئون من نفس الكأس فى دار هى الحيوان لو كانوا يعلمون:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ .هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾(4).

---

(1) الحج: ٥٢ ـ ٥٤.

(2) الأنعام: ١٠.

(3) الأنعام: ١٢٢.

(4) المطففين: ٢٨ ـ ٣٦.

لقد ضحك المجرمون من الذين آمنوا . . . أياما . . . ثم هاهم أولاء المؤمنون يضحكون أخيرا وإلى الأبد . . .

[تمحيص المؤمنين]

ولكى يميز الله الخبيث من الطيب . . . فلابد من البلاء . . . والبلاء العظيم الذى يصهر المعادن الأصيلة الثابتة على الحق . . .

﴿الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

وكثير من دعوات الأرض لم تحقق أغراضها حين اختلط فيها الحابل بالنابل . . . فواجهت أعداءها بغثاء السيل . . . فانهارت عند الضربة الأولى . . . لكن الحق سبحانه وتعالى يبتلى عباده . . . ليميز الله الخبيث من الطيب، ولتوضع خطة المستقبل على أساس متين.

روى البخارى وأبو داود والنسائى:

«عن خباب بن الأرت: قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا . . . ألا تدعو لنا. فقال: «**قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها . ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مَا دُونَ لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه،والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.ولكنكم تستعجلون**».

إن استعجال النصر . . . حجب القلوب فلم تر العاقبة الحميدة من خلال السحب المتراكضة . .

فلفتهم ﷺ بقوة إلى ما لاقاه إخوة لهم على الطريق من العذاب الرهيب . . . والذى كان من صوره ذلك الموت البطىء المروع: يقف المسلم بعقيدته . . . وعلى الجانب الآخر . . ناس يحفرون الأرض . . . ثم يثبتونه فى الحفرة . . . ومنشار يهوى على رأسه ثم يُجزجزا موجعا مروعا . . ما يصرفه ذلك كله عن دينه . . . وربما كانت له مندوحة . . . لو فعل . . . لكنه ما فعل!

---

(١) العنكبوت: ١.

النصر مع الصبر

يقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[1].

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

فما دمتم تطلبون العلياء . . . فلابد أن تدفعوا المهر غاليا: ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر. وتلك سنته تعالى فى الدعوات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾[3].

وإذا كان هذا ديدن المجرمين . . . فليكن رد الفعل صبرا تكابرون به كيد الأعداء . . . وتنالون به العاقبة:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

[والعاقبة للمتقين]:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

وإذا كان صبر المؤمنين تحفزا للهجوم . . وطاقة يستديمون بها فرص الفوز . . . فإن وقاية النفس من الجزع وأوهام النفس وهواجس القعود سبيل إلى الفوز المُحَقق الذى يتوج الموقف أخيرا.

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[6].

---

(٣) السجدة: ٢٤. (٢) آل عمران: ٤٢.

(٣) الحجر: ١٠: ١٣. (٤) الأنعام: ٣٤.

(٥) القصص: ٨٣. (٦) يوسف: ٩٠.

فإذا لم يكن صبر ولا تقوى . . ثم كان هناك علو وفساد . . إذن فهى الهزيمة الماحقة

[قل هومن عند أنفسكم]

وعندما تساءل المسلمون متعجبين عن أسباب هزيمتهم بَيَّنَ لهم سبحانه أن الهزيمة نابعة أساسا من بين جنوبهم . . من داخلهم:

﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1).

وتلك سنته تعالى . فلا تتخلف أبدا.

[مضاعفات الجهل بهذه السنن]

وقد كان الجهل بهذه السنن داعيا إلى وقوع المسلمين فى أخطاء ما كان أغناهم عنها . . ففى أعقاب الهزائم كانوا يتساءلون ـ كما أسلفنا عن أسبابها خارج الذات. . ولكن الحق سبحانه وتعالى يكشف لهم عن أسبابها الحقيقية بالتفصيل . . بعد الإجمال:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(2).

وإذن فدراسة أسباب الهزيمة داخل النفس أجدى من البحث عنها فى غير مكانها. . ولقد غابت حكمة الله تعالى عن المسلمين بين يدى غزوة بدر عندما طلبوا العير . . .وكره فريق منهم القتال مع أن إعدادهم للمعركة بالممارسة أمر تبقى به الدعوة. . .

ولو سارت الأمور على ما يشتهون لما وجد للإسلام قوة رادعة صنعتها الأحداث:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ .

(1) آل عمران: ١٥.

(2) آل عمران: ١٥٢.

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[1].

ولو أنه سبحانه وتعالى استجاب لرغبتهم فى الحصول على العير. . .بلا كفاح. . .لو فعل ذلك سبحانه لاستكانوا للنعيم . وضمرت فى وجدانهم نوازع الطموح. . .ووقف الحق وحيدا على أرض المعركة.

ولو أن المشركين أدركوا هذا المعنى لقدموا العير إلى المؤمنين طواعية واختيارا. . . يسوقونها سوقا . . . ليخدروا بالهدية المبذولة إرادة القتال فى ضمائر المؤمنين . . وليحققوا بهذه المحاولة نصرا بلا دماء . . . ولا ضحايا!.

وقد حدث أيضا فى غزوة حنين أن ربط المسلمون بين كثرة العدد والانتصار ونسُوا الأسباب الحقيقية للنصر فكان ما كان. وذلك قوله تعالى: **﴿ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾**.

فما أحوج الدعاة إلى وعى هذه السنن الإلهية الماضية فى الناس إلى يوم القيامة ـ حتى لا يفاجأوا بمخاطر الطريق . وحتى يعدوا أنفسهم لمعركة تواكب الحياة . . وأن نصرهم الحقيقى إنما يكون بانتصار مبادئ الدعوة التى يَسقونها بدمائهم لتبقى وترقى.

أما بعد:

فأحيانا . . . ينصح الطبيب مريضه أن يعود إلى حيث ولد فى قريته. فعسى أن يجد فى أكنافها راحته . ويسترد عافيته. وفى السهول الخضراء ترى العين مساحات أوسع وأرحب . . . بعد أن كانت حبيسة وراء الجدران . . فى المدينة الصاخبة . . والأصوات المركزة على طبلة الأذن فى المدينة . . . تتحول إلى همسات ونغمات تنساح فى جنبات الوادى . . . والاعصاب القلقة تهدأ . . ثم تنام فى أحضان الطبيعة الساكنة.

(١) الأنفال: ٥ ـ ٨.

وقل مثل ذلك وأنت تتحدث عن الدعوة:

إن كل مرحلة من مراحل التغيير والبناء .. لابد فيها من العودة إلى نفس الظروف التى حدث فيها الميلاد . ميلاد الدعوة.

وإذا كنا نحاول اليوم تسديد مسار الدعوة الإسلامية ... فإن من المفيد: أن نعود إلى ذات النقطة التى بدأت منها مسارها .. لنضبط الخطو .. ونقدر المسافات ـ يحدونا هدف واضح محدد...

يعيننا وضوحه على السير .. بقدر ما يهون علينا متاعب الطريق

وهذه الصفحات المتواضعة ... ما هى إلا عودة مخلصة إلى ماضينا المجيد فى مرحلة من مراحله ... نستلهمها العبرة .. من خلال قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. وهى عودة نرجو أن تكون استجابة لقوله تعالى:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا﴾[1].

[أهمية قصة الخليل]

ترجع أهمية قصة الخليل إلى صاحبها الخليل عليه الصلاة والسلام وكيف كان الأسوة المتجددة عبر الزمان لكل من أراد أن يتخذ إلى الدعوة سبيلا.

يفهم ذلك من قوله تعالى:

﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما..﴾[2].

فقد كان إبراهيم الذى وفى ...

ثم هو الأواه الحليم ... وهو صاحب القلب الكبير الذى امتدت به آماله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة... مباركة.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

(١) الممتحنة: ١.　　(٢) البقرة: ١٢٤.

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

[الأسوة الدائمة]

وبهذه الخصائص المباركة صار أمة فى رجل . . . وكان من الطبيعى أن يأتم به العابدون والدارسون . . . تلمسا للعبرة . . بل إن الرسول ﷺ مأمور باتباعه: وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

[من صور الوفاء]

ومن صور الوفاء لأبى الأنبياء أن نُولى قصته اهتمامنا . . ونحن نخطط للدعوة فى زمان اختلطت فيه المفاهيم . . . . وكثر فيه الأدعياء . إحياءً لسنته. . . واتباعا لطريقته. وسوف نطالع فى الدعوة دلائل مقنعة . . . ومواقف ممتعة . . نشير إليها لا بمنطق الفيلسوف. أو الباحث . . . «الأكاديمى».

وإنما . . . بنظرة الأديب الذى يعايش الموقف . . . متأملا . . . مسجلا انطباعاته . . . متجها إلى الواقع بما يستنبط من دروس تصحح المسير . . . وهى محاولات لم نرد بها حسم قضية الدعوة . . بقدر ما نحاول فتح الطريق أمام من هو أقدر منا على الاستنباط . . وتأسيس القواعد . . . ليسمق البناء.

ولست فى الدعوة جيشا منظما: له قلب . . . وميمنة . . وميسرة. وإنما أرجو أن أكون أشبه بجندى من القوات الخاصة . . . ربما أتيح له أن يهاجم العدو. . . فى مغارة . . . أو مدخل . . لا تطوله الدبابة ولا الطائرة.

وقصارى جهده أن يقوم بهذا الجهد الفردى فلعله أن يعين الجيش المنظم على أن يسيطر على الساحة بإمكاناته الواسعة.

والأمل فى الله تعالى وثيق أن يرزقنا نعمة التوفيق

د: محمود محمد عمارة

---

(1) البقرة: ١٢٨، ١٢٩

(2) النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣

تمهيد

عندما يفتح الشباب عينيه اليوم . . ماذا يرى؟

يرى واقعا أليما . . . لا يرضيه. . . واقعا غابت عنه القدوة الحسنة . . فطال الأمل . وقصر العمل.

وإنه ليحاول التماس أخلاق الإسلام العليا . . . ونماذجه الطيبة . والتى قرأ عنها فى الكتب . . فلا يرى إلا سرابا.

والنتيجة. . . إنها الحيرة . . والتمزق . . والتردد من جدار إلى جدار . . . على موجات من قلق يسلمه إلى حد تكاد نفسه عنده أن تذهب حسرات . . . حزنا على ما فات . . . وخوفا مما هو آت.

وهنا تشتد الحاجة إلى الداعية المنقذ . الذى يمسك المجداف بكلتا يديه سائرا بالسفينة عبر الشاطئ الآمن . . لتستأنف الحياة سيرها من جديد على تقوى من الله ورضوان.

*** أهمية القصة:**

ولن يصل الملاح اليقظ إلى البر سالما. . . إلا إذا تسلح بكل وسائل الإنقاذ.

وهكذا الداعية الواعى . . . لن يصل بالناس إلى ما يرجون من كمال . إلا إذا أعد نفسه للمهمة الصعبة.

وفى مقدمة وسائل الإنقاذ هنا: القصة التى تأخذ دورها المرموق فى إعداد الفرد. وصياغة الأمة.

[و تمتاز القصة بأنها تصور نواحى الحياة. فتعرض لك الأشخاص. وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم . واتجاهات نفوسهم . وبيئتهم الطبيعية والزمنية . تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم].

فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال. ومضيت مع الحوار والنقاش، عرفت ما يستكن فى النفوس من طباع . وما يهجس فيها من خواطر . وانشرح صدرك لأهل الخير منهم . وضقت ذرعا بذوى النفوس المظلمة . والوسائل الملتوية حتى لكأنك تراهم رأى العين . وتسمع منهم سمع الأذن. وتعاشرهم وتحيا

بينهم. وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها . فغزيرة حب الاستطلاع. تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بشفتى القصصى البارع . استشرافا لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء.

[والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التى يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب.

فهى بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم فى صورة عملية حية تحرك الوجدان. وترفع نبض المشاعر.

وهى بالميزة الثانية ـ ميزة التنبه والتقبل ـ تجعل النفوس أوعية مفتوحة . يصب فيها الداعية ما يشاء . فيبلغ القرار][1].

ومعنى ذلك: أن القصة إلى جانب كونها تجديدا للنشاط . وأداة للتفكه . . فهى بنماذجها الواقعية تكون بيانا . . وتكون برهانا: تجسد المعانى المجردة فتستقر فى النفوس طويلا. . .ثم هى برهان على أن المثل العليا قابلة للتطبيق . . بدليل ما تعرضه من مواقف أبطالها المعروضة للناظرين.

القصة الدينية:

وللقصة الدينية أهميتها من حيث موضوعها ونتائجها . . دون بقية القصص التى لا يلتزم رواتها بالمثل العليا.

وينسب إلى العقاد فى هذا المعنى: (لمصلحة التاريخ ينبغى أن ينظر المؤرخ إلى القصص الدينية فى أناة وروية وعلم باختلاف النسق بين العقائد والأخبار).

خصائص القصة القرآنية:

إن الذى خلق الإنسان سبحانه هو أعلم بما يصلح هذا الإنسان.

فقضى سبحانه أن تجىء القصة القرآنية متجاوبة مع غريزة «حب الاستطلاع» مشبعة لها. على صفة لا يحس فيها المستمع بضغط التكليف . ومشقة الأمر والنهى . وعلى المدى الطويل تقوم القصة بدورها فى التأثير . وتحويل مجرى الحياة من حيث لا يشعر الإنسان.

---

(١) تذكرة الدعاة: ٣٧، ٣٨.

لقد أدت القصة القرآنية أكثر من رسالة ، وحققت أكثر من غاية: أدت رسالة العظة والتوجيه والإرشاد . وهى رسالة كتاب الله تعالى الأولى ، كما أدت وظيفة التلقين والتعليم.

وهى تبين فى أسلوب موجز مؤثر بليغ أن عقيدة التوحيد هى العقيدة الغالبة. وأن رسل الله مهما لقوا من العنت واحتملوا من الشدة. هم المنصورون.

ثم أتاحت القصة لقراء وحفاظ كتاب المسلمين الحكيم نافذة فسيحة أطلوا منها على تاريخ أنبياء الله ورسله، وما كان من أقوامهم، وأساليب دعوتهم وردود فعل الأمم البائدة إزاء هذه الدعوات ، وجدله، وما كانت عليه دولهم الغابرة . . . وممالكهم المندثرة من حضارة. وما شرعته من قوانين . وما سنته من أحكام. ولقد رققت القصة القرآنية ذوق العرب والمسلمين. وارتقت بأساليب البيان عندهم، ومهدت لهذه الآثار الضخمة من الكتب والموسوعات، ودواوين الشعر.

لقد ـ وصفت المشاعر ـ. وخلجات النفوس وحللت العواطف والمخاوف. وسجلت الأهواء والأوهام. ولذلك فقد استحقت القصة القرآنية أن نحتفل بها. وأن نطيل درس نصها . وأن نتذوقه وأن نحلله . وأن نستخرج منه الكنوز البيانية والعقلية. والعمرانية والدينية[١] .

مظاهر الحسن فى القصة القرآنية:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وتتمثل مظاهر الحسن كلها فى القصة القرآنية على نحو يرتفع بها لتكون أحسن القصص على الإطلاق . **بما تضمنته من عناصر القصة الكاملة .. وهى:**

أهداف نبيلة. موضوع جاد. . أحداث مترابطة. . أبطال يصنعون الأحداث. . عنصر زمانى. . وعنصر مكانى تتم فيهما الأحداث.

أهداف القصة القرآنية:

للقصة القرآنية أهدافها النبيلة ومنها:

١ ـ تثبيت الفؤاد: يقول سبحانه:

(١) فتحى رضوان ـ القصة القرآنية ص ٧، ٨.

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]

٢ ـ ايقاظ العقل . ليفكر ويستنبط:

يقول سبحانه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٦].

٣ ـ التنبيه والتذكير:

يقول تعالى ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف: ٣].

ويقول سبحانه ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩].

٤ ـ إثبات الوحى . وبث الفضائل فى النفوس:

يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]

٥ ـ الاعتبار:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١]

ومعنى العبرة: العجب. واعتبر منه: تعجب. وفى التنزيل: فاعتبروا... أى: تدبروا. وانظروا فيما نزل. والعبرة: الموعظة مما يتعظ به الإنسان. ويعمل به. ويعتبر . ليستدل به على غيره.

ومن دعائهم: (اللهم اجعلنا ممن يعتبر الدنيا ـ بفتح الباء ـ ولا يعبرها ـ بضمها ـ أى: ممن يعتبر بها ، ولا يموت سريعا حتى يرضيك بالطاعة).

ومعنى ذلك: أن الإمتاع إذا كان هدفا للقصة مطلقا .. فإن القصة القرآنية تضيف إلى متعة العين والأذن متعة العقل بالتفكر .. ومتعة القلب بالصبر والثبات.. على أن ينتهى ذلك كله بالعمل الصالح.

إذن ... فالقصة القرآنية تحقق ما يلى:

(أ) التربية .. بمعنى غرس الأخلاق الفاضلة فى النفوس.

(ب) التعليم .. لا بمعنى حشو الأدمغة فقط بالمعانى، وإنما: إثارة حب الاستطلاع.. وتدريب العقل على البحث والنظر ... وحرية التعبير والنقد

. . . وموضوعية الأحكام.

(جـ) ثم إنها تهذب النفس عن طريق تربيتها على تذوق الجمال . . ليكون الوجدان صافيا من كدر الدنيا.

موضوع القصة القرآنية وأسلوبها:

لا مجال فى القصة القرآنية للخيال أو الانتحال. فموضوعها الحق الذى هو لحمتها وسدادها.

يقول سبحانه: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾**[يوسف: ١١١].

ومعنى كون القرآن تصديق الذى بين يديه أنه مهيمن على ما جاء فى الكتب السابقة فى موضوع القصة وغيرها. .يصدق الصادق منها . ويصحح فى نفس الوقت أخطاءها . . فهو الحكم . . لا معقب لحكمه. .ولا تتعرض القصة القرآنية لكل تفصيلات المواقف. لكنها تركز على مواطن العبرة فيها . . من كل ما يتسق مع رسالة القرآن الهادية.

الحكمة الغائبة:

وقد غابت هذه الحكمة عن أدباء معاصرين فضلوا وأضلوا . . . لقد حالوا بحث القصة القرآنية على ضوء المقاييس البشرية التى وضعوها من عند أنفسهم . وقد وصل الأمر ببعضهم إلى التشكيك فى منهج القرآن فى باب القصة. فراحوا يهرفون بما لا يعرفون. .وكمثال على ذلك: ما جاء فى كتاب (تطور الأساليب النثرية) حيث ذكر المؤلف رأى بعضهم فى القصة القرآنية.

وخلاصته:

١ ـ أن القرآن لا يتناول القصة من جميع جوانبها وأطرافها.

٢ ـ ولا يورد حوادثها مرتبة منظمة.

٣ ـ وبناء على ذلك . فمن الصعب ـ كما رعم الباحث ـ فهم القصة القرآنية إلا بالرجوع إلى مصدر آخر.

وصدق الله العظيم: **﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾**.

وفى الرد على هذه الفرية نورد ما ذكره العقاد:

قال: (أكثر القصص التى وردت فى القرآن الكريم من قصص الأنبياء . فى جهادهم لتبليغ رسالتهم . ونشر دعوتهم . ومقاومة خصومهم من ذوى السلطان الذين أنكروهم . وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم . وأكثر ما جاء فيه من أخبار الدول والملوك . فإنما جاء فى سياق أخبار الدعوة مع سائر أخبارها.

إلا أن يكون الأنبياء ملوكا . كما اتفق لداود وابنه سليمان عليهما السلام . ففى هذه الحالة تروى أخبارهم لأسبابها المذكورة فى قصصهم. . . لأنهم كانوا فى غنى سلطانهم بنجوة من مقاومة خصوم الدعوة .لا كما قاومها أعداء الأنبياء الذين توجهوا بدعوتهم إلى الأمم فحال بينهم وبينها ملوكها وأمراؤها.وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة دقيقة. .تبين للناظر فى مضامينها: أن عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة ودعاة الإصلاح ، إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن ينذب من الأمة طائفة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وكان من الأقوال الواردة فى الأثر: «**إن العلماء ورثة الأنبياء**».

فلا يخلو مكان الدعوة فى الأمم بعد الأنبياء ولا يستغنى هداتها عن الأسوة الماثلة أمامهم فى جهاد الهداية والإصلاح. ولقد كملت دروس الدعوة فى قصص الأنبياء حتى لا نزيد عليها. فلا نستخلص من دروس الدعوة فى التاريخ كله درسا واحدا ليس له نظير. أو نظائر فى قصص الأنبياء التى جاء بها القرآن الكريم. .وهذا هو الشطر الأكبر من القصة القرآنية: يراد به تعليم المصلحين. . . وتربية الهداة. . . ولا يراد به سرد أخبار التاريخ. إلا فى عرض القصة حيث يقتضيه السياق[1].

وبهذا المعنى يكون القصص القرآنى هدى ورحمة: يبصر الناس بمواطن الخير. . ومواطن الشر . . لينقلوا خطاهم فى أضوائها على هدى وبصيرة.

لكن هذه الحكمة لما غابت عن بعض الكتاب المعاصرين . . حملوا القصة القرآنية ما لا تتحمله . . فلما فسد تصورهم لموضوعها وأهدافها . . . فسد حكمهم عليها.

وكان عليهم أن يستلهموا القرآن ذاته . . . ليمنحهم من لدنه روح الحكمة. . . وأسرار المواقف وأسباب الصلاح.

هل في قصص القرآن تكرار؟

ننقل هنا بعض ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية تبصرة وذكرى(١).

قص سبحانه قصة موسى . وأظهر براهين موسى وآياته التى هى من أظهر البراهين والأدلة . . حتى اعترف بها السحرة الذين جمعهم فرعون . وناهيك بذلك. فلما أظهر الله حق موسى . وأتى بالآيات التى علم بالاضطرار أنها من الله. وابتلعت عصاه الحبال والعصى التى بها السحرة بعد أن جاءوا بسحر عظيم. وسحروا أعين الناس واسترهبوا الناس. ثم لما ظهر الحق وانقلبوا صاغرين قالوا ﴿آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون﴾ فقال لهم فرعون:

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[طه: ٧١، ٧٢].

من الدلائل البينات اليقينية القطعية . وعلى ذلك فطرنا . وهو خالقنا وربنا الذى لابد لنا منه . لن نؤثرك على هذه الدلائل اليقينية . وعلى خالق البرية.

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣].

وقد ذكر الله هذه القصة فى عدة مواضع من القرآن، يبين فى كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعا غير النوع الآخر، كما يسمى الله رسوله وكتابه بأسماء متعددة . كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر . وليس فى هذا تكرار . بل فيه تنويع الآيات. مثل: أسماء النبى ﷺ إذا قيل:

محمد . وأحمد والحاشر . والعاقب . ونبى الرحمة . ونبى التوبة . ونبى الملحمة. . فى كل اسم دلالة على معنى ليس فى الاسم الآخر، وإن كانت الذات واحدة فالصفات متعددة.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ١٩ ص ١٦٤ وما بعدها.

وكذلك القرآن إذا قيل فيه: قرآن . وفرقان . وبيان . وهدى . وبصائر . وشفاء . ونور . ورحمة . وروح. فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الاخر.

وكذلك أسماء الرب تعالى إذا قيل:

الملك . القدوس . السلام . المؤمن . المهيمن . العزيز . الجبار . المتكبر . الخالق . البارئ . المصور. فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذى فى الاسم الآخر.

فالذات واحدة، والصفات متعددة . فهذا فى الأسماء المفردة، وكذلك فى الجمل التامة: يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها . ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان أخر. وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة . فصفاتها متعددة . ففى كل جملة من الجمل معنى ليس فى الجمل الأخرى.

وليس فى القرآن تكرار أصلا.

وقد ذكر بعض الناس أنه كرر القصص مع إمكان الاكتفاء بالواحدة . وكان الحكمة فيه: وهو رأى خاطئ أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله ﷺ فيقرئهم المسلمون شيئا من القرآن فيكون ذلك كافيا. . .وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المتفرقة. فلو لم تكن الآيات والقصص مثناة مكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم . وقصة عيسى إلى قوم . . . وقصة نوح إلى قوم. . . فأراد الله أن يشهر هذه القصص فى أطراف الأرض . وأن يلقيها إلى كل سمع . فهذا كلام من لم يقدر القرآن قدره).

من فوائد القصص القرآنى:

ونتساءل الآن: هل حققت القصة القرآنية أهدافها فى واقع الإنسان.

والجواب: نعم . . ويبقى أن نتلمس مصداق ذلك . فيما أشار إليه العلماء[1] من فوائدها وهى:

١ ـ كان أهل الكتاب يفخرون بمعرفتهم أخبار الأنبياء ،وأحوال الأمم.

وقد سول لهم غرورهم ـ لا سيما اليهود ـ أن يتهموا المسلمين بأنهم «أميون»

(١) راجع «التحرير والتنوير» للشيخ الطاهر بن عاشور ص ٥٧ وما بعدها.

لا يعرفون ما يعرفه أهل الكتاب.

ونزل قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [هود: ٤٩].

وكانت القصة من أنباء هذا الغيب. فكانت بهذا المعنى:

(أ) تحديا لأهل الكتاب وكسرا لغرورهم.

(ب) تعجيزا لهم بقطع حجتهم على المسلمين.

(جـ) زالت بها صفة الأمية عن المسلمين الذين عرفوا ما يعرفون . بل أصدق مما يعرفون.

٢ ـ من خلال النماذج البشرية التى تصنع أحداث القصة . . . يتبين للمستمع كيف ترتبت المسببات على أسبابها فى باب الخير والشر. . .وكيف أن الله تعالى سننا تمضى فى الأمم بلا تخلف. وهذا ما يحمل الأمة على تلمس هذه السنن المطردة لتسلك سبيلها على بينة من أمرها.

٣ ـ كانت القصة تسلية للرسول ﷺ والذين آمنوا معه . . . ثم تسرية عنهم حتى تقوى منهم العزائم فى مواجهة أعدائهم.

٤ ـ جاءت القصة القرآنية بأسلوب الحوار الذى كان جديدا على لغة العرب. فكان إضافة جديدة إلى ثقافاتهم المختلفة، إلى جانب ما تبدى من إعجازه الآخذ بناصيتهم إلى الحق.

٥ ـ كان العربى واقعيا شديد الارتباط بواقعه المحسوس. شديد التعلق بكل ما اشتق منه:

لقد أحب قبيلته . وطبيعته . فوصفها كما هى . وإذا جنح به الخيال . . فهو يتخيل على أساس من مشاهد هذا الواقع المنتصب فى وعيه دائما . . وارتباط العربى هكذا بالمحسوس حرمه من نعمة كبرى وهى: الاتعاظ بأحوال الأمم قبله.

وترتب على ذلك عجزه عن تطوير واقعه. .وأوشك بهذه الغفلة أن يقع فى مثل ما وقع فيه الماضون . . بل وقع فعلا . فكان من رحمة الله تعالى أن ساق إليه من قصص الأولين ما بصره بمواقع أقدامه. ليقدر لرجله قبل الخطو موضعها

على ضوء ما يسمع من مصائر الغابرين.

٦ ـ حكى الله تعالى عن «عاد» قولهم: (من أشد منا قوه).

وكان ذلك دليلا سعلى غرور قوم يحسبون أنهم وحدهم فى هذا الكون .. فلما ضرب الله تعالى الأمثال . وقد ذكر تاريخ الأمم قبلهم .. اتسع العالم فى مداركهم . وكان لابد للعرب أن يتعاملوا مع ربهم على أساس أنهم مسبوقون بأمم. وتجارب وأحداث . ينبغى أن تطامن من غرورهم وحسبانهم أن الله تعالى لم يخلق مثلهم.

٧ ـ إذا سبقت الأمة العربية بأمم ذات حضارة .. فإن الإسلام يفرض عليها أن تبنى مثلما بنوا. وأن تفعل مثلما فعلوا . وأن تتحرر من التبعية لفارس أو الروم .. كشجرة مباركة .. مستقلة: لا شرقية ولا غربية.

٨ ـ وفوق ذلك كله، فإن التركيز دائما فى قصص القرآن على أن النصر مع الصبر .. وأن جند الله هم الغالبون .. ومن سار على درب الصبر والثبات .. وصل إلى النصر المبين . وإلى جانب ذلك .. فإن فيها لعبراتهم الدعاة أن يرتفعوا إلى مستواها فهما وتطبيقا.

دروس وعبر:

من بين دروس الدعوة المستفادة من القصص القرآنى:

١ ـ الجهلاء والحمقى . ينقادون للأمر والسطو . ولا ينقادون للحجة والبرهان . ويريدون من المصلح أن يكون ملكا. أو عنده خزائن الأرض.

٢ ـ أن أصحاب السيادة يكرهون التغيير . ويتشبثون بالقديم . ثم يأخذون على صاحب الدعوة إيثاره الفقراء وأصحاب الحرف دونهم . واشتراطهم استبعاد هؤلاء الحرفيين أولا .. ليؤمنوا به. وذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود :٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨].

٣ ـ إن العقائد تخالطها ـ بمرور الزمن ـ آفات الزمن فلا تزال بحاجة إلى

التهذيب والتطهير. كلما ابتعد العهد بينها وبين مصادرها الأولى.

٤ ـ كان تقليد الآباء أكبر آفات البشر . والذى عانى منه الأنبياء والمصلحون عبر القرون.

٥ ـ ومن هذه الدروس: «إن الإصلاح تضحية وعناء . وأن الأنبياء كانوا بين فريقين: فريق يكذبه قومه وفريق يقتلونه.

ولا مناص من القدوة على ما فيها من خطر ومحنة . ولو لم يكن من دليل غير ذلك على أن الدعوة إلى الإصلاح رسالة إلهية لكفى به دليلا يغنى عن كل دليل.

فلا مشيئة لمصلح فى عمله. .ولو شاء مصلح أن يعمل على ثقة من الأمان والنجاح لما قام فى الأرض مصلحون.

٦ ـ ما ينبغى أن يكون عليه طالب العلم من ناحية التواضع وتحمل المشاق فى سبيل تحصيله وتوصيله: يقول الحق سبحانه:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦].

٧ ـ إحقاق الحق وإبطال الباطل . كما جاء فى قصة ذى القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف ٨٧ ، ٨٨].

*****

المنتفعون بهدى القرآن

ولا ينتفع بهدى القصة القرآنية إلا من أعد نفسه لهذه الهداية... وقد أشارت الآيات القرآنية إلى بعض خصائصهم فى مثل قوله تعالى:

أ ـ أنَّهم أولو النهى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[1].

ب ـ وهم المؤمنون:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[3].

هؤلاء هم المؤمنون المنتفعون بهدى الله تعالى فيما قصه علينا ...

وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم...إن العيب فيهم... ولا عيب فى هدى القرآن: فهم كالإناء الخبيث الذى اتخذ من معدن خبيث.

فإنه يقلب كل ما يوضع فيه من الماء الصافى إلى طبعه الخبيث.

(والإمداد على قدر الاستعداد).

*****

---

(١) طه: ١٢٨.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) الزمر: ٢٣.

قصة إبراهيم عليه السلام

مدخل:

فى دعوة الرسل إلى الحق .. برزت قضية التوحيد ركيزة الدعوة ومنطلقها.. والقاسم المشترك الأعظم فيها، على ما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥].

وكان رد الفعل: مقاومة عنيفة يتولى كبرها الملأ الحراص على بقاء الأوضاع مقلوبة ليتسنى لهم الاستمرار فى امتصاص دماء الأمة

لقد ولدوا .. ثم فتحوا أعينهم على صنم يعبد. فورثوا عبادته عن آبائهم. مطمئنين إليه. واثقين به. وإن يأت رسول ليلفتهم عنه .. عارضوه .. فإن بدا أنه سينجح فى دعوته .. آذوه إيذاء من لا يخشى العواقب من حيث كانوا أصحاب النفوذ.

ثم تبدأ مرحلة الجدل بين القوم وبين رسولهم حول محورين:

١ ـ أن من الجرأة بمكان ـ فى ظنهم ـ أن يطالبهم إنسان بترك معبودهم.

٢ ـ ومن الجنون أن يكون هذا الطالب بشرا .. ومنهم بالذات.

لكن الحق منتصر فى النهاية بإذن الله .. وبين هذه البداية .. وتلك النهاية يدور صراع وتتغير أوضاع.

وقصة إبراهيم عليه السلام فى طليعة هذه القصص التى ربى الله تعالى بها الأمة. وهو ما نحاول تجليته بعون الله تعالى[١] وبالله التوفيق.

عصر إبراهيم عليه السلام[٢]:

كانت أمته أرقى الأمم فى العلوم والصناعات. وفى نفس الوقت كانت أضل الأمم كلها!. لأنها سخرت معرفتها فى التنكيل برسولهم.

---

(١) منذ ثلاثين سنة تقريبا كتبت على صفحات منبر الإسلام الغراء تأملات حول قصة نوح عليه السلام.

(٢) راجع كتب التفسير.

أمة لا تعرف الحق . وإذا عرفته لم تعترف به.

لقد عبدوا النجوم والأوثان. . .وشاع التنجيم والشعوذة التى بها تحكم الكهنة في رقاب الناس . بل تواطأوا مع الحكام على استعباد الأمة وبخاصة العامة منهم. . بل حاولوا إقناعهم بأن الملك من الأرباب. . .وتمكينا لهذه الفكرة فى النفوس. تطوعوا هم ـ أى الكهنة ـ وقدموا فروض الولاء للملوك الظالمين، إغراء للعامة والمخدوعين.

أسرته:

كانت أسرته عليه السلام من الكهنة: جده وأبوه . كلاهما كاهن.

ونشأ عليه السلام فى أحضان هذه الأسرة . فرأى . وسمع . كيف يستعبد الإنسان الإنسان.

ولو سارت الأمور سيرها الرتيب لكان إبراهيم واحدا من الكهان، تقدم إليه القرابين كذلك. . .لكنه رفض كل هذه الامتيازات. وقرر أن يقف إلى جانب الحق.

وبدأت رحلة المتاعب:

إنه يواجه أباه . . بل ويتحداه. .ثم يواجه الأمة بأسرها مسفها أحلامها. وبخاصة . . النمرود فى عنفوانه.

استراتيجية الدعوة:

تلقى عليه السلام الرسالة عن ربه سبحانه. .وقد رزقه تعالى: إسماعيل وإسحاق. .وعندما ابتلاه الله تعالى بذبح ولده . . . أسلم وجهه لله وأحسن . . فجاءه الفداء.

وكان أولاده عونا له على أمر الله . . . بالإضافة إلى ابن أخيه لوط . الذى أرسله إلى شرق الأردن. لأنها ممر تجارة العراق وإيران. . . وأرسل إسحاق إلى فلسطين . وهى منطقه بين الشام ومصر،على البحر الأبيض.

ووصلت الدعوة إلى مصر عن طريق إسحاق . . ثم ابنه يعقوب «إسرائيل» ثم يوسف عليهم السلام. . .وكان إسماعيل عليه السلام بالحجاز وهو الذى بنى الكعبة مع أبيه رمزا للتوحيد.

إنها القلب النابض. . .الذى يسحب الدم من جسم الأمة . . . ليضخه فى

عروقها من جذيها. كما يقول المودودى.

وهكذا: انتصر الداعية أولا فى معركته مع نفسه... انتصر على غريزة حب الوطن .. بالهجرة ... وانتصر على غريزة الأبوة بالاستجابة لأمر الذبح.

وانتصر على غريزة التملك بترفعه عن المجد الذى كان ينتظره لو رضخ لتقاليد مجتمعه... بل انتصر على غريزة حب الحياة بتعريضه نفسه لموت محقق انتصارا لعقيدته.

أهمية قصة إبراهيم الخليل:

من أجل ذلك تبدو قصته عليه السلام متعددة الجوانب جزيلة الفوائد . وبالتالى كانت دراستها من الأهمية بمكان.

إن إبراهيم عليه السلام أسوة:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الممتحنة: ٤].

ومن ثم فاحسن الناس مسلكا من اتبع ملة إبراهيم حنيفا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥].

يقول العقاد:

(برزت بين قصص الأنبياء قصتان مسهبتان فى أجزاء الكتاب؛ لأنهما ترويان لنا نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية وهما: أمة وادى النهرين، وأمة وادى النيل.

وكانت قصة إبراهيم وموسى عليها السلام من أجل ذلك أوفى القصص بين جميع قصص الأنبياء... وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل فى العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة فى الزمن القديم.

وهى مما يتلخص فى عبادة الملوك . وعبادة الأجرام السماوية . وعبادة عناصر الطبيعة . وعبادة الأوثان . وتضليل الأبصار والبصائر بالسحر والكهانة.

وجاءت رسالته عليه السلام تطهيرا لهذا الجنس بالتوحيد.

(إن دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد . واقترنت بميزان العدل الإلهى .

واقترنت بإعلاء العبادة إلى ما فوق الطبيعة والجثمان.

وهذه هى الفتوح التى لا نظير لها فيما تحدث عند المؤرخين من فتوح الحياة الإنسانية . منذ أقدم عصورها إلى العصر الحديث.

لا نظير لها فيما فتحه الإنسان من هذا العالم حين سخر النار. أو سخر الحيوان أو سخر الكهرباء، أو سخر الذرة على جلالة فعلها وضآلة قدرها . وهى أقوى المسخرات فيما عرفه إلى اليوم.

هذه فتوح فيما يملكه الإنسان. . .أما تلك الفتوح . ففيها هلاك الإنسان كله . فيما يعلمه . وفيما يبديه . وفيما يخفيه.

تلك فتوح غيرت عالم الإنسان الظاهر ، وعالمه الباطن، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادة سبقتها، وإن كانت العبادة الفضلى غنما يغليه من يقتنيه، ويفديه بكل ما يعيه وما لا يعيه. . .بل هى عبادة فضلى، وفكر فاضل، ونظر جديد إلى الكون وإلى الإنسان وبنى نوعه فى وحدته وفى اجتماعه.

هى فتوح تصحح مقاييس الفكر، وتبدل علاقة الإنسان بنفسه وبدنياه)(1).

ولقد كان إبراهيم عليه السلام أهلا لهذه الرسالة كما وصفه ربه سبحانه فى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]

سر تكرار القصة:

لم تأت قصة إبراهيم عليه السلام ـ وغيرها من قصص القرآن ـ على النسق

(١) إبراهيم أبو الأنبياء: ٥ ـ ٧.

التأليفى المعهود فى إعداد الكتب والأبحاث: متسلسلة الوقائع . . مستوفية كل أحداثها مرة واحدة. . . وإنما نزلت منجمة حسب الوقائع التى استدعت نزولها . . والتى تناسب مرحلة الدعوة.

يقول المودودى(1):

(كان نزول القرآن مقترنا بالدعوة وتطورها وسيرها ، فنزلت منع قطع مختلفة نجما نجما ، وفق حاجات الدعوة المتجددة . ومقتضاها الواقعى فى كل مراحلها. . ومنازلها ، منذ بدايتها حتى اكتمالها.

كانت تلقى فى خطاب من رسول الله ﷺ. ثم تتناقل مشافهة من فرد إلى فرد. لذلك ما كانت تصاغ على أسلوب التأليف، بل كانت تعرض فى الأسلوب الخطابى الذى لا ينسج على منوال المحاضرات الجامعية.

بل كان يشابه خطبة الداعية الذى عليه أن يستهدف إثارة العواطف بجانب مناشدة العقول. وعليه أن يواجه كل نوع من أنواع العقليات. وعليه أن يعمل لما تقتضيه دعوته وحركته ، فى ظروف متباينة ، وأوضاع متضاربة.

فمن إقرار الدعوة فى سويداء القلوب إلى مخاطبة العقول بمختلف النظريات إلى استثارة الفيض من المشاعر ، إلى كسر شوكة المعارضة، إلى تربية الأتباع وإصلاحهم ، إلى نفخ الحماس فى نفوسهم ، إلى تحويل الأعداء أصدقاء أوفياء إلى إرغام المنكرين على الإقرار، إلى دحض حجة الجاحدين ، وقطع دابر نفوذهم الأدبى، وما إلى ذلك من الأمور التى يجب على رائد الدعوة . وقائد الحركة أن يقوم بها على أكمل وجه. وأوفق منهج).

ومعنى ذلك أن الحركة التى تعاصر أحداثا معينة، لابد أن تعايش هذه الأحداث . . فى محاولة لتطويعها وتوجيهها طبق مفهوم الإسلام.

[تربية الذوق الجمالى]:

إن التكرار تفنن فى المعانى باختلاف طرق أدائها . من مجاز أو استعارة . أو تمثيل أو كناية.

وتفنن فى الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة . وسعة اللغة باستعمال

---

(1) المبادئ الأساسية لفهم القرآن ٢٩ وما بعدها

المترادفات مثل: ﴿ولئن رددت﴾ . و﴿ولئت رجعت﴾.

وتفنن فى المحسنات البديعية المعنوية واللفظية. . .وإذا كان هذا التفنن لونا من الإعجاز فإنه يغذى النفوس بروائع هذا البيان. فى ألفاظ مبتكرة وأساليب ناضرة. ومحاسن بيانية غضة طرية . تشتهيها الأنفس . وتتلقفها القلوب.

فوائد قصة إبراهيم عليه السلام:

١ ـ تسليح للدعاة بالصبر الجميل.

٢ ـ تجديد لوعد الله بنصرهم.

٣ ـ تخويف لأعداء الحق مهما كان عددهم وعدتهم.

٤ ـ بشارة للدعاة بأنهم سيأخذون بعض حظهم وهم على قيد الحياة ، طبق سنته تعالى فى الدعوات:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]

*****

من دروس البر

يقول الله تعالى فى سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا . يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[1].

تمهيد:

تقول التجربة الإنسانية: إن الضغط على المدعو يعنى تجاهل شخصيته الشاعرة المفكرة .. وإنكار أن له قلبا حساسا .. وعقلا مدركا..

وقد يحاول الداعية فرض فكرته على المدعو .. غير آخذ فى حسابه أن للمدعو ـ بعد سماع الموعظة ـ حوارا مع نفسه ومسائله...ولذلك .. فواجبنا يتقاضانا: أن نقول كلمتنا ونمضى . تاركين للمدعو مع نفسه وقفة .. يقول هو بعدها كلمته الأخيرة .. ثم ليبزغ الإيمان فى قلبه إذا شاء تعالى بإرادته فإن كان ذلك المدعو شخصية مرموقة فى قومه ... وقد تربطك به آصرة الرحم . وواشجة القربى .. فإن هذه الحساسية المفرطة .. تفرض عليك أن تكون نقطة الزيت ... لا نقطة الخل:

إن قطرة الخل .. تفسد برميلا من العسل. بينما نقطة الزيت ... على ضآلتها .. لتفتح قفلا عشش الصدأ فيه زمنا طويلا .. تفتحه .. بعد أن عجزت القبضة القوية عن فتحه .. وقد تكسره .. لكنها فى النهاية تخسره!

والمهم .. أن يظل الداعية ـ وفى أحلك الظروف ـ محتفظا بهدوء أعصابه والنتيجة بعد ذلك على الله.. أن يظل قدوة حسنة ... مهما كان الوضع على الجانب الآخر ...

وهو الدرس البارز فى موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه... الدرس الذى يقول للدعاة الراغبين فى الإصلاح: إن الكتب تعلمنا: كيف نفكر. ولكن

---

(١) مريم: ٤١ ـ ٤٣.

القدوة تعلمنا: كيف نعمل .. وما أوسع المسافة بين: المدارسة .. والممارسة.

من أجل ذلك يُؤمر ﷺ بإبراز جانب من جوانب شخصية الخليل عليه الصلاة والسلام .. تبصرة وذكرى .. وذلك قوله تعالى: **﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾**

ونتساءل لماذا التذكير بإبراهيم عليه السلام ... وبالذات؟

أولا: لأنه أبوهم.

وثانيا: لأنه مُقرون بنبوته وحقيقة رسالته.

وعندئذ يكون الانطلاق .. من نقطة اتفاق. وهذا واحد من ملامح المنهج الإسلامى فى الدعوة: فمحمد عليه السلام يدعو قومه فى رحلة الإيمان .. إلى طريق سوى ... والمسافران .. لكى يتبينا مراحل الطريق .. وتكاليفه .. لابد أن يركبا سيارة واحدة.. وإلا ... فلو اختلفنا منذ البداية صار الأمر على ما يقول الشاعر:

ذهبت مشرقة وسرت مغربا شتان بين مشرق ومغرب

وتلافيا لهذا المصير ... يذكِّرهم بأبى الأنبياء عليه السلام فى نقطة اتفاق يضعها الداعى بين أيدى القوم ... ليلتقوا معه عليها ... وذلك أدعى للإصغاء إليه .. ثم الإقبال عليه . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى قوله تعالى: **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ...﴾** ومن هذه المعانى السواء... يكون استواء المتحاورين على الصراط المستقيم .. وفى غيابها يكون حوار الطرش .. الذين لا يسمعون!.

ولقد جاء التذكير بموقف من مواقف الدعوة.. الدعوة التى استحق إبراهيم عليه السلام أن يكون رائدا عظيما من روادها..

بما تسلح به من أخلاق عظام: **﴿إنه كان صديقا نبيا....﴾**

لقد نزل إلى ساحة الدعوة ... بسلاحها:

أ ـ لم يكن مجرد صادق .. ولكنه كان صدّيقا:

لقد جمع له الصدق من أطرافه: كان صادقا مع نفسه .. حين صدّق فعلُه

قوله . . . وكان صادقا مع ربه تعالى . . حين صدقه فيما أوحى إليه.

ب - ثم هو نبى ورسول: فهو مصدق للحقائق موثق . . . مأذون له فى الدعوة . . . وكان من نتيجة ذلك كله: صدقه مع الناس . . . ممثلا فى دعوتهم إلى الخير. بادئا رحلة الإصلاح . . . بأسرته . . . فى شخص رمزها وهو: أبوه.

من مظاهر الصدق:

وقد تجلى صدقه عليه السلام فيما يلى:

لقد علم وجه الخطورة فى دعوته على المدعو نفسه. . فهو يدعو أباه الذى كان سيدا فى قومه. . . يدعوه إلى تغيير نمط حياته بالكلية. . . . ويأتيه ذلك من قبل ولده . . . وما يترتب على ذلك من إثارة حفيظته أن جاءته الدعوة ممن يعيش فى كنفه. .

من هنا . . يُعِد الداعية للأمر الخطير عدته. .فحق الأبوة يفرض عليه ألا يناديه باسمه المجرد. . .ثم لا يناديه: يا أبى . . ولكن: يا أبت . .وما فى زيادة المبنى من زيادة البِرّ والمودة . . ثم يكررها . . . فى كل نداء . . . إنها التاء. . حرف . . . واحد . . يزيده . . ليكون كفص من الملح. . إنه صغير . . لا يساوى شيئا . . ولكن من منا يستغنى عنه؟

ولعله عليه الصلاة والسلام، بهذا التودد أن يخفف من حدة والده - ثم ليفرض عليه قدرا من الإحراج يمنعه من مبادرته بالعنف . . والطرد . . أو تأخيرِهما على الأقل . .

إن لفظ الأب ليشى بالوقار . . والاحترام . . ثم بالشفقة والرحمة أن يكون من الضالين. .

[درس فى البر]:

إنه درس فى البر . . كما أنه درس فى الدعوة . . وبنفس القوة . . وإذا كانت قواعد التربية تقول للآباء:

أبناؤكم ليسوا ملكا لكم . . . ولكنهم أبناء الحياة. .لكم أن تعطوهم حبكم. . وليس لكم أن تعطوهم فكركم . . لكم أن تماثلوهم . . ولو شئتم . . وليس لكم أن تجعلوهم مثلكم . . إذا كانوا يقولون ذلك. . فإنا نقول للأبناء . .

والدعاة منهم بخاصة.. إلى فضيلة البر سبيلا إلى الإصلاح.

وهكذا كان السلف الصالح عليهم رحمات الله:

إذا كانوا أبناء.. عرفوا للوالد حقه.. وإذا كانوا تلاميذ.. عرفوا للمعلم حقه:

يذكّرونهم.. ولا ينكرونهم.. ويَبَرُّونهم ولا يعقونهم.. بما قدمت أيديهم؛ تأدية لحق الأبوة.. وشكرا لسالف التربية:

بِراً يرتد إليك من الله تعالى..

رحمة: تُذهب عنك متاعب النفس.. وتدفع عنك عوادى الخلق. وتُصلح لك منازل الأهل.. وبركة: يصح بها الجسم. ويضىء بها العقل. ويزيد الرزق. ويُنسأ فى الأجل.

[وقفة مع العقل]

وبعد هذه الشحنة العاطفية الحانية يقف الداعية مع أبيه وقفة متأملة مع العقل. والعقل الذى يقرر بجلاء:

أن العاقل لا يقصد شيئا إلا لداعية صحيحة: جلب نفع.. أو دفع ضر.. وعلى ضوء هذه القاعدة يقول له:

﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا﴾

إن من مجافاة المنطق: أن تقصد إلى ما لا يضر ولا ينفع... وإذ كانوا يقولون ـ مع تحفظنا.

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

فما بال رجل عاقل يركن إلى صنم.. فيلغى عقله حين يتجه بولائه إلى من هو أدنى رتبة منه؟ لا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا..

إن العبادة فى أجلى معانيها هى: غاية التعظيم.. فكيف يُتجه بها إلى من هو غاية فى التحقير؟! لقد فَقَد عناصر الحياة.. وفاقد الشىء لا يعطيه... وأجدر بنا أن نزهد فيه.

وإذ يَبْدُو المنطق هنا قويا.. من شأنه أن يوقظ النوام.. فمن المحتمل أن

يستيقظ المدعو فعلا على صوت الحق الراعد .. يعاند .. ولا يساعد.. وربما أخذته العزة بالإثم فظن أنه والد .. ولديه .. دون ولده من الخبرة والتجربة والعلم ما ليس عنده .. فكيف سولت له نفسه ـ وهو الحدث ـ أن يواجه السن والتجربة بهذه الدعوى؟

ويتصدى إبراهيم عليه السلام لهذه الخواطر التى لا تسر الخاطر بما ذكرته الآية الكريمة: ﴿**يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا**﴾.

ورغم صحة الدعوى .. فقد يتمرد المدعو .. من أجل ذلك يلجأ الداعى إلى سلامة العرض بهذا الأسلوب الذى لا يعرّض بجهل والده .. وإنما بالحسنى:

صحيح أننى ابنك .. ولكن لا يمنع ذلك أن أكون دليلك على الطريق .. فلم لا تتبعنى وأنا دليلك على صراط .. مستقيم .. سوى .. والخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين؟ لقد جاءك الهدى .. يدق عليك الباب .. بل من وراء الباب .. على لسان ولدك.. والذى يحملك على تصديقه داعيان: العقل .. أو حتى الدم المشترك .. ولكن لا عقل هناك .. وقد جفت الدماء فى العروق.

*****

من الوفاء إلى الحب

يقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[1].

إذا كانت الهداية غاية الدعوة العظمى . . كما يشير قوله تعالى: ﴿.. **أهدك صراطا سويا**﴾. . فمن الوفاء لهذه الغاية أن تكون وسيلتها كذلك . . على مستواها رفعة وسموا: إن الهداية نور . . وفى النور معنى الرفق . . والوضوح . . والانكشاف . .

وإذن . . فلنجعل من كلمة الدعوة نورا يكشف الغامض . . ويجلى الخفى لتتراءى الحقيقة بكل زواياها ولكل ذى عينين . .

وكذلك فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . . فجاءت دعوته على أوفى منهاج . . وأبلغ احتجاج . . . لقد خاطب فى أبيه العقل من قبل . . وهاهو ذا يخاطب فيه قلبه الشاعر . . فلعل قلبه أن يفيق على الحقيقة التى تفرض نفسها: ﴿**يا أبت لا تعبد الشيطان..**﴾

ولاحظ هنا كلمة الشيطان وكيف يهز بها القلب الغافل هزا . . لتُنَفِّره من شركه . .

والحس البصير يدرك ما فى الكلمة من معانى: العتو والتمرد . . والبعد عن الحق . . ثم من رحمة الله تعالى. ثم ما تشير إليه من معانى: الخفة . . . والطيش . . . والبطلان . . والاحتراق. ثم تكون الطامة الكبرى، أن يُتَّخذ كائن هذا شأنه إلها . . فهو لا يقول له: لا تتبع الشيطان . . وإنما: لا تعبد الشيطان.

وعبادة هذا الكائن الشرير . . الرجيم . . لا تتصور: فقد تنقاد له حينا . .

---

(١) مريم: ٤٤ ـ ٤٧.

ولكنك لن تعبده .. وقد باء بالخسران من يعبد الشيطان. .أجل .. باء بالخسران من عصى الرحمن .. فكان بهذا العصيان محروما من الوفاء .. الوفاء للرحمن الذى أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه .. وهل هناك أعتى ممن قابل نعم الرحمن بالكفران؟

إن الداعية هنا يتجه إلى وجدان المدعو ليهزه . وبعمق: وكأنما يقول له: كيف تعبد الشيطان؟ وعلى أى أساس؟ كيف تعبد من قابل أنعم «الرحمن» بالعصيان فبلغ نهاية الطغيان! لا تُصغ إلى نفسك التى تقول لك خداعا: إنك تطيعه .. ولا تعبده .. لأنك بهذه الطاعة تعبده!.

[تذكير القلب .. لا تفجيره]

ويلاحظ: أن إبراهيم عليه السلام لا يريد بمخاطبة القلب أن يضغط عليه ليفجره .. وإنما يريد فقط أن يذكِّره: .

إنه يضىء شمعة.. فلعلها تنير الطريق .. ولا يطلق صاروخا يدمر هذا الطريق.. .وليبق طريق العودة مفتوحا..

وكيف:

أ ـ لم يؤكد إبراهيم عليه السلام وقوع العذاب .. وإنما فقط: يخاف وقوعه .. إنه العذاب .. المتوقع .. لا الواقع فعلا.

ب ـ ثم إنه يخاف أن يمسه العذاب مسا: يمسه .. ولا يسحقه.

جـ ـ هذا العذاب الذى يخاف وقوعه من «الرحمن» .. ولم يقل من الجبار مثلا!.

أى أن الداعية هنا حريص على هداية المدعو ..إنه لا يحمل خلف ضلوعه مشاعر الحسد والتربص وحب الانتقام .. بيد أنه يعبد الطريق .. لعله أن يفيق..يمهد الطريق أمام قلبه .. برفق ولين .. ولعله يلين!

من الوفاء إلى الحب

وإذ يلج إبراهيم عليه السلام فى دعوة أبيه إلى الخير .. فذلكم هو الوفاء. وإذ يتلطف به .. وبقلب مفتوح ودود .. فذلك هو الحب..وعلى جناحين من

الوفاء والحب يطير الدعاة .. فى الجواء العالية..

ومن هنا تبدأ ـ رحلة الدعوة .. من قلب الداعية الودود.. يتجرد شوقا إلى إنقاذ الناس؛ ليهديهم .. لا ليهدمهم.

والأوفياء من الأتقياء لا يضعون حُب الناس فى قلوبهم .. لا يضعونه .. وإنما: يزرعونه .. لينمو من بعد .. ويؤتى أكله .. من كل زوج بهيج:

ألا وإن رصيد المال يغنى .. أما رصيد الود فلا يغنى:

تسحب منه .. كلما شئت .. وكيفما شئت .. وبقدر ما تشاء! ولن تكون سعيدا حقا .. حتى تسعد الآخرين.. وكما يُصقَلُ العقل بالمعرفة .. يُصقل القلب بالود..

فإذا نضب فيه الود .. علاه الصدأ .. وكان المرء حينئذ: سيارة تدير عجلتها.. ولكنها لا تنطلق .. لماذا؟

لأنها بلا وقود .. بلا قلب ودود.

ولقد كان الخليل عليه الصلاة والسلام سعيدا بإيمانه .. ثم أراد أن تكمل سعادته بإسعاد الآخرين .. بالإيمان .. وفى طليعتهم أبوه .. فاستحق بوفائه ورحابة قلبه أن يكون لنا أسوة .. وللدعاة بخاصة، ليكونوا للناس بحبهم لهم أسوة.

إن الذين اتبعوا الأنبياء عبر التاريخ .. أحبوهم أولا . فصاروا بالود سعداء أما المعاندون فهم يحسدون .. ومن ثم لا يسعدون .. ولو حاولوا أن يكونوا سعداء .. لما طاوعتهم أنفسهم .. ذلك .. بأن الحسد قيد .. ولكن الحب: انطلاق .. وتضحية .. وإيثار..

وهنا نذكر قول الشاعر:

والود فى الأرض بعضٌ من تخيلنا   لو لم نجده عليها لاخترعناه

من أجل ذلك نرى أن يواجه الداعية الناس لا بعقله فقط .. ولكن بعقله وقلبه معا:

وعندما نواجه المدعو بعقل الفيلسوف .. متجاهلين القلب وأشواقه.. لا يُقبل

علينا بكل كيانه . . لأن قلبه ظامئ إلى العطف . . . وليس من وظيفة العقل أن يمنحنا ذلك العطف . .

يقول البصراء: [للعقل حساباته وتوقعاته: إنه ينظر إلى الأمور بمقياس المكسب والخسارة ولكن القلب بما فيه من ود . . هو السهم المندفع . . المغامر . . الطائر . . وهو الحيوية المتدفقة . . لذلك كانت سعادة القلب أقوى من سعادة العقل: لأن سعادة العقل محسوبة ومتوقعة . . لكن سعادة القلب مفاجئة . . إن دموع العيون لا تتدفق من العقل . . ولكن . . من القلب . .ومن ثم . . قلَّ أن تجد عاقلا يبكى . . لأنه عقل أحاسيسه . . ربطها . . قيدها . . لكن القلب: مطلق . . طيب . . مستكين . . يتدفق ويزيد] ا. هـ.

ونَقْلب الصفحة الآن لنرى كيف كان رد الفعل لدى الوالد الجاحد:

لقد كان على ما حكته الآية الكريمة:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾

وما كان جواب إبراهيم عليه السلام إلا أن قال: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربى﴾

إن النسمة العليلة لم تأخذ من الحجر الأصم شيئا . . وبقى المدعو على ضلاله القديم . .

بل إنه ينكر على ولده . . بالذات فى قوله [. . أنت . .] ينكر عليه كفره بآلهته . .

ثم يواصل الدفاع مستميتا عن آلهته . . مهددا برجمه:

وهو بهذا العناد يعبِّر عن خلق الأولين: الذين يفضلون القديم . . لقدمه . . مع أن القدم لا دخل له فى التقويم . . لقد قالوا: إننا فتحنا أعيننا . . فوجدناه . . ألفيناه: صار لنا إلفا وعادة . . فهم جامدون متحجرون . . بينما الدعاة يريدونهم روادا . . نحو الأفضل . . . وإذن . . فليس للهجمة الشرسة هنا ما يسوغها:

لقد نجح الداعية فى إعطاء المدعو حقه فى البيان والبلاغ . . . ولكن المدعو لم يؤد واجبه: طاعة . . أو تسريحا بإحسان حين أغمض عينيه . . وسد أذنيه: وأحيانا يسطع جمال الحق حولنا . . لكن المعاند لا يستطيع رؤيته . . وقد يستطيع لكنه لا يريد.

وهكذا لم يرد الوالد أن يستجيب . . وعلى الرفض مزيد من الغشم فى

قوله: ﴿لأرجمنك﴾. مناد يا له بالاسم المجرد متناسيا أنه ابنه .. طالبا منه الجلاء .. بهذا الجفاء: ﴿واهجرنى مليا﴾

تأمل هذا .. ثم تصور من مشاهد الطبيعة حولك: النخلة .. تقذفها بالحجر.. فتسقط عليه الثمر وشجرة الصندل: تعطر الفأس التى تقطعها.

إن العيب هنا فى نفس المدعو .. لا فى مَنهج الداعية:

لقد قال إبراهيم لوالده فى نفسه قولا بليغا.. من شأنه أن يبلغ قرار نفسه ..

ولكن ما رأيك فى الأرض السبخة: لا تمسك ماء .. ولا تنبت كلأ! إن الموعظة فى نفسها مؤثرة .. والداعية هنا على مستوى المسؤولية .. ولكن القلب كالجسم..

فكما أن الجسم المريض لا ينفع معه طعام ولا شراب .. فكذلك القلب الجامد: لا يستجيب للموعظة مهما كانت سائغة بالغة..

ومن يك ذا فم مر مريض .. يجد مرا به الماء الزلالا.

ولا بأس على الداعية وعندما يصل الحوار إلى طريق مسدود أن ينسحب .. وإلى حين .. ينسحب وعلى لسانه ما يود أن يقوله لأبيه آسفا:

أشبهت أعدائى فصرت أحبهم　　　إذا كان حظى منك حظى منهمو!!

*****

من أدب الحوار

يقول تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم ـ ٤٨].

بكى الطفل الصغير عندما وضعه أبوه أمام عدد من اللعب يحبها كلها .. ليختار بنفسه إحداها. .أجل بكى لأن والده لم يعفه من صعوبة الاختيار .. لأن الاختيار حرية .. ولا حرية بلا مسئولية .. وعليه أن يتحمل وحده مسئولية اختياره..

وهذا الموقف البسيط البليغ يفسر لنا كيف ثار والد إبراهيم .. وهدده بالرجم. والطرد. .ذلك بأن إبراهيم عليه السلام وضع والده أمام مسئولية الاختيار.. اختيار الإيمان دينا: وبكى الوالد على طريقته طبعا . فكانت دموعه رجوما وحُسُومًا .. لأنه لا يريد أن يتحمل مسئولية الإيمان الذى سوف يقول له: افعل .. ولا تفعل .. بينما هو مستريح جذلان مع دين عَفِنٍ: يعطيه ما يشتهى.. ولا يكلفه بما لا يطيق. .ثم يمضى معه معصوب العينين ممتَهِنا بشريته فى صحبة صنم صامت من الحجر أو صنم ناطق .. من البشر!.

وهكذا ترى المدعو .. يجفو .. بينما قلب الداعية .. يهفو ..وكل إناء بالذى فيه ينضح.

وليس فى دنيا الطواغيت وزن للبراهين ذلك بأنهم يكسرون .. ولا يفتحون.

لكن الداعية الحصيف لا يقف من المشكلة عند قضبانها .. وإنما يجول فكرُه فى مفاتيحها .. ولقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك الداعية الحكيم: ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا﴾

وهو أولا: درس فى الصبر .. بل فى مصابرة العدو .. مهما بدا طلبه سخيفا .. ومنطقه عنيفا ..

لقد طلبوا من عيسى عليه السلام مائدة من السماء .. ومع سخافة الطلب إلا

أنهم أجيبوا إليه لحكمة بالغة. . وإذا كان بعض الناس يحسبون أنهم يضيفون لأنفسهم قوة بالشدة على الآخرين من الشرفاء الأتقياء . . فإن للدعاة منطقا آخر . . يُدخل فى حسابه مصلحة الدعوة أولا وأخيرا.

وكان المنطق هنا: السلام . . فى مواجهة إعلان الحرب. . والمصابرة . . إزاء المهاترة . . مصابرةً تعرف من دروس الحياة أن النصْر مع الصبر . . ومن مشاهد الطبيعة: أن النفق وإن بدا . . مديدا . . مظلما . . فإن له مخرجين! . . والأمل فى الله تعالى وطيد أن ينصر الحق فى النهاية وهذا ما شهدت به الوقائع الناطقة بلطف الله تعالى بعبده الصالح فى رحلة عمره: ﴿**إنه كان بى حفيا**﴾.

وهو ثانيا: درس فى أدب الحوار:

إنه حوار . . لا مواجهة. . حوار: يتردى فيه المدعو إلى الهاوية . . بينما يتربع فيه الداعى على قمة الأدب بهذا الرد المتسامح الودود والذى صار به الخليل عليه السلام أسوة فى أدب الحوار. . . يقول صاحب المثل السائر:

[وترى من هذا كله كيف يُتخذ الاستدراج طريقا لإثبات المدَّعى: وذلك بأن يبدأ الخطيب فى إلقاء الرِّيب فيما عليه من يخاطبهم. ثم يلقى إليهم ببعض ما تنتجه الأدلة. . مغضيا النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التى تنتجها البراهين؛ حتى إذا اطمأن أنه أخذ بزمام الجماعة يقودها حيث يشاء ألقى إليهم بالنتائج كلها لبراهينه. . والاستدراج كما رأيت يكون فى المقامات التى يكون الخطيب فيها متصديا للدعوة لأمر لم تألفه الجماعة أو لفكرة تناقض أمرا اتفقت عليه] ا. هـ.

وقد تتأخر النتائج . . ولكن الداعية الحكيم لا يجزع أبدا . . إذا تقدم ببطء المهم: ألا يقف جامدا . . وليس الفشل ـ كما يقولون ـ أن تسقط . ولكن الفشل حقا: أن تظل حيث سقطت.

عزلة الداعية:

وقد تفرض ظروف الدعوة أن يتوقف الحوار ولكن إلى حين. . . وذلك قوله تعالى: ﴿**وأعتزلكم وما تدعون من دون الله**﴾

ولا يكون موقف الداعية عندئذ سلبيا . . يجتر فيه ذكريات الماضى غضبان أسفا . . وإنما هى: الخطوة إلى الوراء . . لتجىء القفزة من بعدها

محكمة.. ولكى تكون محكمة.. لابد من التزود بالوقود إعدادا للنفس.. وصقلا للقلب.. وذلك قوله تعالى: ﴿وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا﴾

إنه يسلم وجهه إلى الله تعالى: راضيا عنه عز وجل.. وهذا هو الطريق الأمثل للاستغناء عن الخلق.. بالخالق سبحانه.. لقد سلَّم نفسه لخالقها تعالى.. وإذن.. فلن تضيع عند من لا تضيع عنده الودائع.. وهذا هو الطريق الأمثل لنفى الخوف من المخلوق.. إنه بدعاء ربه.. بذكره تعالى فى غمرة من النور.. تضاعف لديه الإحساس بالحضور بين يدى الله تعالى..

وعندئذ يتحقق معنى العبودية فى أسمى معانيه بهذه الحصانة الإلهية: فهو يرت ى بها فى مدارج العزة.. فيهون عليه أعداءُ.. يتدحرجون فى السفح.. بينما هو فى الذروة من الأمان والكرامة.

وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا﴾ ما يشعرك بتواضع الداعية الذى يرجع كل شىء إلى ربه تعالى.. فهو لا يقطع بما سوف يكون عليه فى مستقبل أيامه.. بل يتركه لتقدير الله تعالى:

ولاحظ أنه عليه الصلاة والسلام لم يواجه أباه مباشرة بقرار العزلة.. فقال: ﴿وأعتزلكم﴾ ولم يقل «وأعتزلك» رعاية لحق الأبوة، وتقديرا من الابن لأبيه.. مهما كانت درجته من الجمود والجحود.. وإذا كان قوله: ﴿شقيا﴾ فى قوله تعالى: ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا﴾ إذا كا ذلك تعريضا بأبيه وقومه.. وما هم عليه من ضلال.. وما هم فيه من شقاء.. فإنه التلميح.. لا التصريح.

وهكذا يطالعنا النسق القرآنى الكريم فى أحسن اتساق.. وأرشق مساق.. مما يعتبر درسا يؤكد ما للكلمة من سحر حلال.. يغزو القلوب.. حتى تتوب وإن لم تتب فقد ظل الداعية فى أجمل أحواله قدوة فى منطقه وفى عمله يختار لفظا على لفظ.. ويؤثرا أسلوبا على أسلوب.. وإن بقى المعنى كما هو: وقد استلهم الفكر الاسلامى عبر التاريخ هذا المنهج القرآنى الحكيم.

رأى بعضهم فى منامه ما أزعجه.. فاستدعى من يعبرُ له رؤياه، فجاء، فقال له: أهلُك سيموتون جميعا.. فطردوه ثم استدعى آخر. فقال له: أنت أطول أهلك عمرافكافأه وقربه.. مع أن النتيجة واحدة.. والخلاف فقط لفظى.. إلا

أنه وإن كان لفظيا فإن الفارق هائل بين التعبيرين .. فى حس الرجل .. الذى رفعه حب الحياة إلى أن يقرب هذا .. ويطرد ذاك.

وفى ضوء ذلك .. يجمل بالداعى أن يتخير ألفاظه .. وبمعنى أدق: أن يكون قرآنيا فى مواجهته للناس:

يقول العلماء:

[والقرآن معجز التعبير، فكلمة .. «ألّف» غير كلمة «وحد» وهى تفيد بأنه يمكن أن يكون ثمة لون من الاجتهاد الشخصى، والاختلاف فى الوسائل أو الفروع. ولكن ـ مع ذلك ـ فإن التأليف يحقق الربط والجمع فى طريق صناعة الحضارة وتوجيه التاريخ] ا. هـ.

إن أفكار الإنسان له .. ولكن كلامه للناس .. فليكن مناسبا للمدعو .. محققا للغرض المقصود. .والتناسب أو التناسق هو البناء الهندسى للكلام؛ فاللفظ المناسب .. هو وحده المرشح للتعبير عن المعنى المراد .. والجملة فى مكانها .. تمهد لما بعدها .. ولو سقط لفظ .. أو حتى تغيّر لضاع المراد .. وإذا كان من خطر اللسان ـ وهو العضو الصغير ـ أن يكشف الأطباء به أمراض الجسد .. فهو الذى يكشف به الدعاة أمراض النفوس .. ثم ليعالجوا هذه الأمراض بما لذ وطاب من ثماره.

خـــلـق اللسان لنطقه وبيانه لا للسكوت فذاك حظ الأخرس

فإذا جلست فكن مجيبا سائلا ـ إن الكلام يزين رب المجلس

وأخيرا على الدعاة أن يتعلموا الدرس الذى لفت علماؤنا الأنظار إليه .. والذى بدا فى موقف إبراهيم عليه السلام:

هذا الدرس الذى تجلى فى هدوء النقاش . واطمئنان الحجة . وسكينة الدفع: إنك لا تسمع فى مجال الإقناع الهادئ، ما تعهده لدى البشر من ضجيج الانفعال، وتسرع الثورة، وافتعال الحماسة. .. لأن الصدق الواضح لا يحتاج إلى متكئ ضعيف من جلجلة الألفاظ، وعلو النبرات. بل ينحّى ذلك جانبا إلى سلامة البرهان .. وصدق الدليل . ووضوح النتيجة. وإذا كان العهد بالمنتصر فى ساحة النقاش أن ينشامخ ويختال حين يُفحم خصيمه بالحجة، ويلجمه بالدليل،

فقد ضرب القرآن المثل الأعلى فى توجيه المنتصر وجهة إنسانية لا تعرف الغطرسة الكاذبة . والاستعلاء البغيض][1] ا.هـ

وإذن فهو منهج الدعوة الذى يتمثله داعيه أوتى الرشد هو إبراهيم عليه السلام يتسلح بالكلمة التى تهدى . . ولا تهدد . . تصون . . ولا تبدد . . تنصح. . . ولا تجرح . . تستر . . ولا تفضح.

[الكلمة هناك]:

وقد تيقظت الدول إلى ما للكلمة من أهمية:

فالمجلس الأمريكى لأساتذة اللغة الانجليزية مستاء من الأساليب الجافة الجارية على ألسنة الناس، فقرر منح جائزة لوزارة الخارجية لامتناعها فى تقاريرها عن استخدام كلمة «قتل» وعبرت عنها بأنها (حرمان من الحياة بطريقة غير مشروعة . أو بطريقة تعسفية).

وقررت أن أجمل التعبيرات هى تعبيرات العسكريين:

لأنهم يعدلون إلى جمل خفيفة الوقع . .

وكمثال على ذلك:

الجملة المعدول عنها	الجملة المعدول إليها
المعارك	تطور وازدياد حدة العنف
الخسائر فى الأرواح	أضرار إضافية
غزو «جرنادا»	اقتحام عمودى قبل الفجر
كوارث جوية	رحلات جوية فقدت السيطرة عليها

يقول الشيخ محمد الغزالى[2]:

(الرجل صاحب الرسالة يعيش لفكرته، ويعيش فى فكرته:

فحياته فكرة مجسمة تتحرك بين الناس، تحاول أبدا أن تفرض على الدنيا نفسها، وأن تغرس فى حاضر الإنسانية جذورها ليمتد على مر الأيام والليالى فروعها متشابكة تظلل المستقبل وتتغلغل فيه. . .

(١) د. محمد رجب بيومى .

(٢) مجلة رسالة الإسلام.

ومن ثم تبدأ الدعوات والنهضات الكبرى برجل واحد هو ـ فى بداية أمره ـ أمة وحده.. أمة يتخيل حقيقتها فى رأسه ويحس ضرورتها فى دمه، ويبشر بها فى كلامه ويحمل أثقالها على كاهله . ولا يزال يجمع الرجل على الرجل، ويضم البيت إلى البيت، ويرسم المبدأ والوسيلة والهدف، وينفخ من روحه فيمن حوله.. فإذا الأمة التى كان يتخيلها وحده قد أصبحت حقيقة واقعة تطلع الشمس عليها، ويعترف الناس بها، ويسجل التاريخ قيامها..

وهكذا بلغ النبيون رسالات ربهم وصنعوا بأيديهم الأمم التى انتقلت بها الإنسانية من طور إلى طور..وهكذا فعل العظماء من قادة الفكر الناضج وأصحاب المذاهب الفعالة والتيارات العقلية الكاسحة . إن أحدهم يضع «تصميم» المجتمع الذى ينشده كما يرسم المهندس على الورق تصميم القصر الذى يريده .. ثم لا يزال يرفع القواعد ويشيد الشرفات ويستحث الفعلة ويستكمل الأدوات حتى يستوفى البناء قائما شامخا عليه من روح منشئه طابع وبرهان..

سر النماء

وإن أحدهم ليقول الكلمة فى الإبانة عن دعوته فتتلقفها النفوس والعصور تلقف الأرض الخصبة للحبة التى أودع الله فيها سر النماء والازدهار . فإذا هذه الكلمة المرسلة تنشئ رجالا. .وتخلق أبطالا، بل تنشئ أجيالا وتزلزل جبالا... وأن أحدهم ليولد وفى الدنيا دول قائمة وآراء سائدة، وتقاليد مقررة وجماهير تحيا على ذلك وتموت كأنها فقاعات الموج تظهر وتختفى لا وزن لها ولا غناء .. فإذا الدنيا تميد تحت قدمى صاحب الرسالة الناشئ وهو ينظر إلى الأوهام السائدة والممالك القائمة والأحزاب المتألبة ثم يبتسم فى قلة اكتراث، ويقول قول النبى العظيم قبيل موقعة حنين، وقد وصفت له تجمعات أعدائه: **«تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله»**

صاحب الرسالة

إن أولى صفات صاحب الرسالة أنه يؤمن بنفسه ويكفر بخصومه ويغالى بفكرته ويحقر ما عداها ويزحزح غيره ولا يتزحزح ألبتة، وينزل الناس على آرائه إن استطاع ولا ينزل على آرائهم أبدا، ويثبت على شدة الكيد، ويصبر على مرارة الهزيمة، ويعيش فى وطن من دعوته إن نفاه وطنه، ويدوس الأمجاد الزائفة،

ويستهزئ بعروضها ولا تستخفه كثرة طلابها ولا تفجعه قلة الزاهدين فيها . .

وفى حياة «محمد بن عبد الله» النبى الذى أدب العروبة ليؤدب بها الأمم، والذى قدم للحياة رسالة لا تزال الإنسانية تتألق وتتأنق وتشرف بها وتزدان . . فى حياة هذا النبى النبيل مثل عليا يفزع إليها صاحب كل رسالة فاضلة عادلة ليرتوى منها إذا صدى، ويسعد بها إذا شقى، وليقتبس منها دروسا مجدية فى طرائق الجهاد المضنى عندما يتجرد الحق إلا من إشراقه ويتشدد الباطل لكثرة عدته وعتاده!).

*****

من مقومات الداعية

يقول الله تعالى فى سورة الصافات:

﴿ وَإِنَّ من شيعَته لإبْرَاهيمَ . إذْ جاءَ رَبَّهُ بقَلْبٍ سَليمٍ . إذْ قَالَ لأَبيه وقَوْمه ماذَا تَعْبُدُونَ . أئفكًا آلهَةً دُونَ اللَّه تُريدُونَ .فَمَا ظَنُّكُم بربِّ الْعَالَمينَ ﴾ الآيات [الصافات: ٨٣ ـ ٨٧]

فى مرحلة من مراحل التاريخ . وقف الإنسان مسلوب الإرادة . واجف القلب . يواجه الطبيعة بقواه المحدودة . . فإذا قواه تلك تنحسر مقهورة أمام ظواهرها. وإن يكاد فؤاده لينخلع إذا رعدت السماء . أو كسفت الشمس . أو خَسَف القمر. أو هبت العاصفة.

فى هذا الوقت الذى استسلم فيه الإنسان إلى الطبيعة طالبا رضاها يرسل الله تعالى إبراهيم عليه السلام رسولا . . . ليرتفع بالإنسان فوق هذه الطبيعة . التى تأخذ حجمها الطبيعى بعون الله تعالى . الذى مكنه منها بتسخيرها له . . جامعا شمله الممزق . فى رحلة مباركة تحت لواء التوحيد.

يقول المرحوم العقاد: [إن دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد . واقترنت بميزان العدل. واقترنت بإعلاء العبادة فوق الطبيعة والجثمان.

وهذه هى الفتوح التى لا نظير لها فيما تحدَّث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الإنسانية، منذ أقدم عصورها إلى العصر الحديث. لا نظير لها فيما فتحه الإنسان من هذا العالم: حين سخَّر النار. أو سخر الحيوان . أو سخر الكهرباء . أو سخر الذرة على جلالة فعلها . وضآلة قدرها . وهى أقوى المسخَّرات فيما عرفه إلى اليوم:

هذه فتوح فيما يملكه الإنسان . . أما تلك الفتوح: ففيها ملاك الإنسان كله. فيما يعلمه. وفيما يبديه. وفيما يخفيه. تلك فتوح غيرت عالم الإنسان الظاهر. وعالمه الباطن . . وليس قصارى الأمر فيها أن عبادة جديدة أفضل من عبادة سبقتها ـ وإن كانت العبادة الفضلى غُنما يُغليه ويَفديه بكل ما يعيه ولا يعيه ـ بل هى عبادة فضلى . وفكر فاضل . ونظر جديد إلى الكون وإلى الإنسان وبنى

نوعه فى وحدته. وفى اجتماعه: هى فتوح تصحح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الإنسان بنفسه . . . وبدنياه] ا.هـ.

ونتساءل الآن . . ماذا وجد الداعية من قومه؟

لقد وجد إبراهيم عليه السلام قلوبا غلفا . وأعينا عميا. وعقولا متحجرة. وكان عليه أن يغزو هذه القلوب بالكلمة اللينة . . . وأن يفتح هذه العيون بأشعة من الهدى . . . وأن يمسك بزمام هذه العقول بالبرهان . . حتى تفيق من سكرتها، لتسترد كرامتها المضيعة . . بل عمرها الضائع رافعة هامتها بعزة التوحيد. ذلك بأن الجهل يُفرغ الإنسان من كل عناصر الحياة الراشدة. .ومن معانى هذا التردى: عجز القلب عن تصديق مقررات العقل. والانفعال بها. وتحويلها لخدمة الحق.

وما ظنك بناس يضحُّون بكثير مما يشتهونه . . فى سبيل الحصول على شىء واحد يشتهونه! وإن أحدهِم ليلهث وراء المال . أو المنصب . . فيفقد فى سعيه اللاغب ما هو أغلى من المال والمنصب. . .وقد تكثر أموالهم . . لكنهم فى النهاية يخسرون كراماتهم. .

ويجىء الهداة والمصلحون ليلزموا هؤلاء كلمة التقوى مؤذّنينِ فى الناس: بأن الكرامة أغلى وأعلى.

مقومات الداعية:

والآية الكريمة تشير إلى سلاح الداعية فى مواجهة هذه العلة المتوطّنة . . وهى: القلب السليم:

﴿وإن من شيعته﴾ أى من شيعة نوح عليه السلام: **﴿لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾**.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما اختصه الله تعالى به من الرشد المبكر . . تجلى لنا داعية حكيم يواجه المعركة على أوفى مستويات الاستعداد: عقليا . . وقلبيا . . وترتسم فى وعينا مقومات الداعية من خلال شخصية إبراهيم عليه السلام المتكاملة. . والتى تلخِّص هذه المقومات فيما يلى:

١ ـ أن يكون فاهما لقضايا الإيمان: أعمق الفهم وأوضحه.

٢ ـ أن يقتنع بالإسلام اقتناعا يرفض أنصاف الحلول. ويتأبى على المساومة عليه.

٣ ـ أن يتسلح لإقراره . والتمكين له. بكل ما يستطيع.

٤ ـ أن يستعد للتضحية فى سبيله . ولو بالحياة.

٥ ـ أن ينتصر أولا فى معركته مع نفسه . حتى يكون أهلا للانتصار فى ساحة الوغى ـ وكذلك كان الخليل عليه السلام عندما واجه قومه.

لقد آتاه الله رشده . . فجاءه بقلب سليم . . وبمجموع الفضيلتين بدأ يباشر مسئولية الدعوة. .

لقد كان عندئذ على أوفى معانى التقوى . . وتقوى الله تعالى باب واسع إلى النصر المبين.

وإذا كان الحق دائما . . لأنه متجانس مع الواقع . . وكان الباطل زاهقا لأنه مناقض لهذا الواقع . . إذا كان الأمر كذلك . . فإن الحق مع ذلك لن ينتصر أبدا لمجرد أنه يطابق الواقع . . بل إلى جانب ذلك . . لابد أن يكون له رجال على مستوى الحق: صدقا . . وعدلا . . وإذا تخلى المسلمون عن هذه القاعدة هزموا ولو نصرهم الله تعالى مع ذلك . . لفجروا!

ونعود إلى الآيات الكريمة التى توضح: أن إبراهيم عليه السلام كان واحدا ممن دعَوا إلى مثل ما دعا إليه أخوه نوح عليه السلام من قبل . . حين دخل المعركة بقلب سليم من الآفات . . . فاغترف اللسان منه من الحكمة آيات بينات. . . ومن دلائل هذه الحكمة ذلك السؤال الذى بدأ به مواجهة قومه: ﴿ماذا تعبدون..﴾

والداعية يعرف الجواب سلفا . ولكنه يسألهم . . ليكون جوابهم حجة عليهم إنه يهز فيهم مداركهم بالسؤال لتصحو على الحق المبين. .وليس مهمة الداعية أن يقول شيئا . . أى شيء . . حتى ولو خسر المدعو . . لكنه حريص مع شدة اللهجة أحيانا على أن يظل المدعو بين يديه . . ليكون فى النهاية معه . . وها هو ذا عليه السلام يمنع المدعو من التردى . قبل أن يرتفع به نحو الترقى. . ولكنا نشُم فى السؤال رائحة الاستهزاء بالقوم . . لكنه الاستهزاء الذى لا يملكون إقامة الدليل عليه . إنه خفى . . ومن وراء السطور . . حتى لا يشغب القوم عليه. .

وربما ينتهى الموقف بتحرشهم به فلما سكتوا ولم يجيبوا كان ذلك قوة له . . بقدر ما كان ضعفا من القوم شجّع الداعية على إعلان السخرية المضمرة بهذه الحملة الظاهرة وذلك ما تشير إليه الآيات الكريمة: **﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين﴾**

وكأنما يقول لهم: كيف ورطتكم عقولكم ـ إن كانت لكم عقول ـ فأوقعتكم فى أسوأ صور الكذب وهو: الإفك. . هكذا طفرة:

تتخذون من لا يخلق أصدقاء؟ جائز! ولكن، تتخذونهم . . آلهة؟!! من دون الله الذى يخلق؟فما ظنكم بربكم إذا حشرتم إليه غدا؟

ماذا أنتم قائلون له سبحانه وتعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع؟بالطبع . . لن يكون لديكم ما تقولون فى موقف لا يتورط فيه إلا من لا عقل له . . فلا منطق له.

علامات على الطريق:

والسؤال الآن: هل تجوز المخاشنة أحيانا مع المدعو الكافر. . ؟

هل يتاح للداعية فى فترة من فترات الدعوة أن يواجه المدعو بما يكره . . مع ما يمكن أن يترتب عليه من مضاعفات؟

ونبادر أولا فنقول: إن المؤمن حين يتخذ من التوحيد عقيدة تشكل فكره ووجدانه لا يطيق أن يرى أية صورة من صور الشرك. . .وما أصبرك على النار. . حين تنظر اليوم فترى أحياء يطلبون من الأموات ما لا يقدر عليه إلا خالق الموت والحياة سبحانه؟

ولقد رأى إبراهيم عليه السلام الشرك. . الذى لا يكتفى بأنه نشاز. .ليفترى على الله الكذب. .فماذا يصنع؟ لابد أن يقول كلمة . . وإن كانت عالية النبرة تنفيسا لغيظه المكتوم. .ورحم الله من قال: واحتمال الأذى ورؤية جانبيه.عناء تضوى به الأجسام!

ونجيب عن السؤال ثانيا بما انتهى إليه البصراء: تجوز مخاشنة الكافر أحيانا . . ومتى:

١ ـ إذا تحققت بها مصلحة دينية.

٢ ـ إذا تباهى الباطل . . ثم مال واحتجب . . وادعى الغضبَ

٣ ـ إذا سخَّر إمكاناته لمحاربة الدعوة .. بل وتبجح بدنياه المؤثرة.

٤ ـ ثم .. إذا لم تكن هذه المخاشنة شفاء لغيظ أو جنوحا مع هوى.

إن نبرة الشدة حينئذ نوع من الثبات .. وإظهار القوة .. كسرا لجبروت الباطل .. ورحم الله امرءاً يريه اليوم من نفسه قوة .. وإذا كان من مقررات البشر اليوم:

ـ رهبوت .. خير من رحموت .. ويقصدون بذلك: لأن يرهبنى الناس خير من أن يشفقوا علىّ..

إذا كان هذا مقررا .. فإن الداعية الحق إلى حد ما محكوم بهذه القاعدة بحكم بشريته .. وإذ يركز الضُّلاَّل من الطغاة على الدعاة بالذات .. فباسم الدعوة التى شرفه الله بحملها ..لابد أن يريهم من نفسه ما يكرهون.. ولأن يكرهوه .. خير من أن يرحموه .. وذلك ما يشير إليه قول الشاعر:

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحمينا

ألا وإن الذهب عيار أربعة وعشرين .. لا يُصنَّع .. لأن ليونته لا تسمح بتصنيعه .. ولابد فيه من نسبة ضئيلة من النحاس .. حتى يتماسك ويكون صالحا للزينة .. وهكذا الداعية .. وفى مواجهة الشرك:

إذا قيل رفقا .. قال للحلم موضع وحلم الفتى فى غير موضعه جهل.

*****

من القول إلى الفعل

يقول تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ . فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ . فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ. قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٨٨ ـ ٩٦].

لأن الدعاة على غاية ما تكون الثقة بنصر الله تعالى . . فقد كانوا ينقلون خطاهم على درب الدعوة بثبات: لا تستفزهم تحرشات المغرضين . . ولا تطيش أحلامهم فى المنعطفات الخطيرة . . ولهم من اليقين زاد . . . إلى المعاد . . لا ينفذ أبدا . . إنهم رجال: يوقنون بأن رزقهم فى السماء . . ومن ثم . . لا ينحنون من أجله لأحد . .

ولأن أجلهم فى كتاب . . فهم لا يخافون أحدا إلا الله . . وانحناؤهم فقط لواهب الرزق . . وخوفهم أبدا من المحيى المميت سبحانه وتعالى . . ومع هذا . . فإنهم يلجأون إلى الحيلة أحيانا . . تلطفا بالمدعو . . وإخذاله على غرة . . وذلك عندما لا تتكافأ القوى.

إن القائد العسكرى . . لَوْ واجه بالقلة كثرة لا يعلم خطرها . . كان مجازفا:

ثم إنه فى نظر الناس مذموم. [إن غَلب لم يُحمد ولم يشكر. وإن غُلب لم يعذر ولم يؤجر]

وهكذا الداعية عندما يواجه عدوا مدلا بقوته . . مزهوا بجنده . . وهو ما فعله الخليل عليه السلام . . عندما انتقل من القول . . إلى الفعل . . من الوعظ إلى الحيلة . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم**﴾

ويلاحظ أنه لم يبدأ مرحلة العمل من نقطة مناقضة لواقع القوم . . ولكنه بدأ من حيث يعتقدون . . ثم أملى لهم . . وفى النهاية أعلن إفلاسهم . فلقد كان القوم يعتقدون أن للنجوم تأثيرا على الإنسان . . فنظر إلى النجوم نظرة

موهما لهم أنه رأى ما دل على أنه سقيم .. أى مريض بالطاعون لينفروا منه.. ونجحت الخطة..

ولا ينبغى أن تَبْهرنا لحظات النجاح .. دون أن ندرك كيف تم النجاح: لقد طالما قال الداعية لقومه .. فسمعوا منه..واليوم .. إذا هُمْ بعد أن سمعوا منه .. يسمعون عنه!! يسمعون عنه كيف تجاوز بخطته فكر القوم .. فحطم أصنامهم .. وهم لا يشعرون وهو واحد من ملامح المنهج الإسلامى فى الدعوة .. يؤكد به الداعية كيف يلجأ إلى الحيلة أحيانا .. سبيلا إلى كسب القضية..وإلا .. فلو رمى الداعية بنفسه فى لجج أخطار لم يقدُرها قدرها .. فسوف تأخذه الدوامة بعيدا .. ثم لا يعود..

لقد كان من حكمة القواد الأجانب حسن تقدير النسب .. والموازنة الدقيقة بين القوتين المتصارعتين: فكان القائد إذا أنفذ جيشا إلى الهند مثلا: جعل بإزاء كل رجلين .. رجلا.. وإن كان إلى الترك جعل بإزاء كل رجل .. رجلين..

وهكذا تقول الحكمة الأجنبية .. وقد سبقتها الحكمة الإبراهيمية. التى علّمت الدعاة كيف كان للحيلة دورها. وفى وقتها المناسب..

ورحم الله الشاعر القائل:

ركو بك الهول ما لم تبدُ فرصته ... جهل وأمرك بالإقدام تغرير

فكن مصيبا وخذ بالحزم مأثرة ... فلن يُذم لأهل الحزم تدبير

فإن ظفرت بجهل ثم فزت به ... قالوا: جهول أعانته المقادير

وإن ظفرت بحزم أو هلكت به ... فأنت عند ذوى الألباب معذور

أنكِد بدينا ينال المخطئون بها ... حظ المصيبين...والمغرور مغرور

[من القول.. إلى الفعل]:

ولما خلا له الجو بدأ ينفذ خطته .. ويلاحظ هنا أن المرحلة العملية .. والتى بدأت بقرار تحطيم الأصنام كانت أصعب من سابقتها القولية .. من أجل ذلك كان لابد ـ كما قلنا ـ من الحيلة ودقة الاحتياط .. وذلك قوله تعالى: ﴿فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين﴾

وفى ضوء الآيات الكريمة يتضح من مظاهر الحكمة ما يلى:

١ ـ أنه عليه السلام لم يحمل المعول مزهوا فخورا مستعلنا . . ولكنه «راغ»: ذهب يمنة . . ويسرة . . فى سرعة . . خديعةً . . فهو لا يستقر فى جهة . . كأنها الصيد تُريغه . . أى تطلبه وتريده . . على أتم ما يكون الحذر . . ذلك بأنه فى غياب الحذر يصبح الخطأ اليسير نكسة للدعوة . . وهو ما يتلافاه الحكماء الذين .

قال أحدهم:

ينبغى للعاقل ألا يستصغر شيئا من الخطأ والزلل . فإنه متى استصغر الصغير . . يوشك أن يقع فى الكبير . فقد رأينا البطل يؤتى من العدو المحتقر.

ورأينا الصحة تؤتى من الداء اليسير. ورأينا الأنهار تتدفق من الجدول الصغير

٢ ـ هيأ الداعية الموقف من قبل . . بادعائه المرض . . فلما خلا له الجو وغاب القوم بدأ يضرب ضربته .

٣ ـ وكان تحطيم الأصنام «باليمين» . . واليمين رمز القوة التى لا تعرف التردد .

٤ ـ ولقد جاءت الضربة فى أوانها:

ولا يظن أحد أن تكسير الأصنام جاء قبل أوانه . . ولكن الحدث قد تخلَّق . . وحان مخاضه بعد أن بدا الداعية بمنطقه القويم . . أقوى منهم . .

لقد واجههم بما يشبه أشعة الشمس التى أذابت الجليد . . فصار القوم فى نظر أنفسهم غثاء كغثاء السيل . . وفى نفس اللحظة وقف الداعية موقفه موقنا بصحة موقفه . . وعندئذ حانت لحظة الخلاص . .

إن الداعية الحكيم لم يركب الشطط لينفذ فكرته . . وإلا أجهضها قبل أن تتخلق .

وإذا كان تحطيم الأصنام مُهِمًّا فأهم منه أن يهز الموقفُ ضمائرهم لتصحو . . وقد صحت فعلا . . ولكنها صحوة الموت . . صارت بها لأبصار حديدا . . فأيقنوا بعد فوات الأوان .

لقد حطمها باليمين . . بالقوة المنقضة انقضاض الصقر على الفريسة . فلا تبقى لها أثرا . ولعل هول النتيجة أن يشل ـ على الأقل ـ أيديهم فلا تفكر فى

الاعتداء عليه . . ونذكر هنا موقف فرعون عندما ألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا هى ثعبان مبين نذكر كيف ارتبك فرعون المستبد. ثم اتجه يطلب المشورة من قومه . ولأول مرة . . قائلا: ﴿ماذا تأمرون﴾ لقد أراه الحق من نفسه قوة. فتخاذل. وانهارت قواه . وقدم حينئذ للحق تنازلات ما كانت تخطر على بال. .

ويحملنا على ذلك القول: أنه حين يُرى المؤمنون الكافرين من أنفسهم قوة ـ مع قلة عددهم ـ فمن شأن ذلك أن يربك خطط الأعداء لحساب الحق.

وهكذا: يبدأ الداعية فى مواجهة الكفر . . يبدأ حملته . . هينا لينا . . حليما . . إرخاء للحبل . . حتى إذا جاءت ساعة الصفر . . تقدم الإيمان فأجهز على الكفر فى ميقات يوم معلوم. . وهو نفسه المعنى الذى نوه به الشاعر العربى. . والذى زها بأنه من قوم يحملون على خصومهم. حتى إذا ضربوا . . ضربوا ضرب من لا يخشى العواقب وذلك قوله:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ـ وتخالنا جنًّا إذا ما نجهل.

أحلام العصافير:

ولقد راع القوم ما حدث. فأقبلوا إليه مسرعين . . وياليتهم ناقشوا النهاية الأسيفة بموضوعية لعلهم أن يفهموا فيهتدوا . .

بيد أنهم جاءوا فيما يشبه المظاهرة الإعلامية بلا قائد من عقل فاهم . . أو قلب سليم . . وإنما كانوا كالنعامة التى تطير . . ولكن كيفما اتفق . . وبدل أن تواجه حيلة الصياد بحسن التدبير. . فإنها تفر من مسئولية المواجهة بِدَفْن رأسها فى الرمال. . وكذلك يفعل السطحيون! السطحيون الذين تحركهم أحلام العصافير. . وهذا ما عبر عنه السياق فى قوله تعالى: ﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾ . . وفى التعبير ما فيه من إزراء بخفة أحلامهم . .فالزفيف: هو الصوت الذى تحدثه النعامة . حين تنطلق مسرعة من خطر يتهددها . . فتزف بجناحيها . .

يقول الباحثون: [وفى وصف القوم بهذا تشبيه لهم بالنعامة فى جُنُبها الذى يطير معه صوابها، حين ترى أو تتوهم أنها ترى خطرا. فتنطلق إلى حيث ترمى بها أرجلها. لا إلى حيث يدعوها عقلها . . إذ كانت ولا عقل لها . ولا حيلة عندها. . .حتى إذا دهمها الخطر . دفنت رأسها فى الرمال. . .وكأنها بذلك قد دخلت مأمنها . وهكذا القوم فى تصريف أمورهم: إنهم نعام طائش. لا عقل

لهم . ولا تدبير عندهم] أ. هـ.

ومن تدبير الله تعالى للدعوة أن يبد أعداؤها فى مظهر يزرى بهم ولا يحسدون عليه . . فى الوقت الذى تتراءى فيه حقائق الدعوة مجلوة على مرآه رجالها الحكماء. . على نحو يسر الناظرين . . بقدر ما يخزى به الله الكافرين . . وفى هذه المنعطفات الخطيرة. . لا يكون الحسم منوطا بفصاحة الموعظة . . لكنها القدوة التى تبدو فى أتم معانيها . . وفى شخص الداعية الذى يمثل حكمة الرجال. . والتى عبر الشعر عن بعض نواحيها فى قول أحدهم:

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

عجبوا لحلمك أن تحوّل سطوة ... وزُلال خُلقك كيف عاد مكدرا

لا تعجبوا من رقة وقساوة ... فالنار تُقدح من قضيب أخضرا

إنها الرقة . . والقساوة المحكومتان معا بالحكمة الضابطة . . وتجاوز حظوظ النفس لتكون مصلحة الدعوة هى غاية المراد.

ألا وإن العلم وحده لا يكفى . . وما أكثر المشكلات التى يقف حيالها العلم عاجزا لتتقدم الحكمة تمسك بالزمام. لقد قال العلم: إن الأصنام وجودها حرام . . وعبادتها شرك . . وتحطيمها فريضة . . ولكن الحكمة قالت: يؤجل تحطيمها إلى فتح مكة . . وهنا . . كان إبراهيم عليه السلام «يَعْلَم» تفاهة الأصنام ولكن الحكمة فرضت أن تحطَّم . . ولكن بالحيلة. .

ولقد نال بالحكمة أضعاف ما ينال الأذكياء،

أناة. . . فإن لم تغن عقَّب بعدها ـ وعيدا: فإن لم يغن أغنت عزائمه.

*****

حرب التصفية

يقول تعالى فى سورة الصافات:

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾

[الصافات: ٩٤ ـ ٩٨].

عندما ينتفش الباطل مزهوا بما يملك من مال وعتاد. فقد وجب على أهل الحق أن يظهروا بمظهر القوة المعبرة عن الحق فى جلاله وجماله.. ويرحم الله كل مؤمن يُرى المبطلين من نفسه قوة .. قوة تكسر من شوكتهم .. ثم تهوى بهم فى حضيض الذل .. فى الوقت الذى يبلغ فيه غرورهم مداه.. وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام .. حين ضرب الأصنام .. وبقوة أطارت صواب القوم الذين عادوا من سهرتهم الماجنة ليروا أصنامهم جذاذا .. وهو درس من دروس الدعوة يلقنه عليه السلام مَنْ بعده .. لتنهض أمة الإسلام فى مواجهة الكفار مديدة القامة .. صلبة الإرادة..

إن الباطل قد يحقق يوما نصرا جزئيا .. وفى مرحلة من مراحل الكفاح.. ولكنه لا ينتصر إلا إذا ضعف أهل الحق.. والأمة الإسلامية مطالبة بأن تحشد قوتها فى مواجهة المبطلين .. وإلا فلو تراخت قبضتها على الحبل المتين ..كان ذلك مخصوما من حسابها ليضاف إلى المبطلين رصيدا .. وعندئذ تتحمل الأمة الإسلامية وزر إعانة المبطلين على الحق .. فكانوا فى الإثم سواء!

ولقد كان لكم أسوة فى إبراهيم عليه السلام عندما وفَّى فتمثل الحق الذى تمشى فى دمه .. ثم كان على مستواه تضحية وفداء .. فهزم الله به المبطلين.. وورطهم بحكمته وقوته فى موقف ضعيف ذليل حين [أقبلوا إليه يزفون] .. ويهرفون..

لقد عقدوا له محاكمة عاجلة .. ولكنه انتصر عليهم فى النهاية .. بقوله كما انتصر من قبل بفعله: ﴿قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾ .

لقد واجههم بالأمس قائلا: ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون﴾ وهو اليوم يوبخهم

بما ينطوى عليه إفكهم من الغاء لعقولهم بالمرة:

أتعبدون ما تصنعونه بأيديكم؟! تنحتونه .. ثم تعبدونه؟! فلماذا لم تعبدوه قبل أن تنحتوه؟

ما هو الجديد الذى أضافه النحت إلى الحجر .. حتى يعبده البشر؟ ألا إن استخذاء الحجر فى يد المثال الذى يضربه وهو يسويه مانع من العبادة أساسا.. إذ كيف يمنح الإنسان ولاءه للعبة بين يديه!

إن الخليق بالعبادة حقا هو الله تعالى..الذى خلقكم وخلق ما تعملون .. وعليكم أن تثوروا لكرامتكم إلتى مرغتموها فى التراب .. وعقولكم المغموسة فى الوحل .. لترتفع إلى أعلى .. فتعبد الأعلى.

[حرب التصفية]:

وقد حاول المهزومون أن يضربوا الضربة الأخيرة .. فلجأوا إلى التصفية الجسدية.. .وكذلك يفعل المبطلون دائما أمام الحجة التى تبهتهم فلا يستطيعون ردها: لقد لجأوا إلى العنف تغطية للموقف من ناحية .. ومن ناحية أخرى إيهاما للعامة المبهورين بهم ليثبتوا لهم أنهم مازالوا أقوياء .. وهذا هو الدليل .. فما هو الدليل؟ ﴿قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم...﴾

وما كان للعنف أن يحل للإسلام قضية بل إنه ليرتد على صاحبه وبالا:

﴿فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين﴾ فجعلناهم الأخسرين.. أجل .. صاروا هم الأسفلين .. الأخسرين ... عندما خسروا المعركة على جهتين:

١ ـ خسروا معركة الرأى أمام البرهان.

٢ ـ ثم خسروا معركة التصفية الجسدية حين نجاه الله تعالى من النار .. التى لن تحرق منه إلا وثاقه ... إلا القيد!.

الهجرة إلى الله:

ونتساءل هنا:

ماذا يفعل الداعية المسلم إذا أحس بالغربة بين قوم كافرين أتاهم من حكمته بالغرائب؟ ولمن يشكو إذا أحس بالظمأ بين كفار يتقاسمون أمامه..مياه السحائب؟

لا ملجأ له ولا منجا..إلا إلى ربه سبحانه وتعالى والذى يستجيب له فيتجه

إلى حيث تثمر الدعوة وتؤتى أكلها: ﴿**وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين**﴾.

إن حملة التضليل الكافرة لم تنل من ثقة إبراهيم عليه السلام بربه تعالى .. ولكن من الوفاء للدعوة أن يتخذ قرار الهجرة فى وقته المناسب ... فرارا من أعداء كافرين ما زالوا يتربصون به الدوائر..

إن الباطل كالأسد الجريح: فهو يتحفز للانقضاض بعد الهزيمة النكراء: على الجهتين: القولية... والعملية... ومن الحكمة ألا نمد أعناقنا للجزار طواعية.. ولكن الأمر على ما يقول تعالى: ﴿**... إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة**﴾

من أجل ذلك: كانت الهجرة ضرورة لازمة.. إن الداعية الحق لا يتحرك لحساب أهوائه .. ولكن لحساب الحق الذى صار مماته ومحياه..

هكذا الحق الذى يجب أن يسود ويبقى .. ولن يتم له ذلك إلا بأمرين:

أ - بيئة صالحة... ب - وأعوان صالحين..

ومن ثم .. قرر الهجرة طلبا لهذه البيئة الخصيبة .. ثم طلب من الله أن يرزقه المعين على أمره فقال: ﴿**رب هب لى من الصالحين**﴾

والداعية هنا: لا يهمه ما أصابه شخصيا .. لكن شغله الشاغل هو الحق الذى ينبغى أن يعلو ... وكلمة التوحيد التى يجب أن تظل باقية فى عقبه.

ومن ثم .. طلب الولد: لا يهم إن كان ذكرا أو أنثى .. بل ولا أن يكون مدرسا أو مهندسا.. فالأهم من ذلك كله أن يكون: من الصالحين.. أن يكون صالحا: لِتَلَقِّى كلمة التوحيد .. ثم رَصَد وجوده كله حماية لها .. ولقد كانت الاستجابةَ الإلهية فورية.. مبشرة بولد يحمل من خصائص أبيه ما يُعينه على تحقيق أمله فيه: ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾

غلام .. وفى الذكورة فتاء .. وحيوية.. وحليم .. يتجاوز بفتائه وحيوية المعاطب .. سالما بدعوته ..

إن المعركة المقبلة لن يحسمها السلاح الأبيض .. ولا السلاح الأحمر! وإنما هى بحاجة إلى: الداعية .. الحليم .. المستقيم ... والذى يواجه سفه الجهال بسلاحه الفعال: الحلم!

انتصار الداعية:

ولقد كان من تدبير الله تعالى أن يظل إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة فى صبره الجميل . . هذا الصبر الذى انتصر به بالأمس على أعدائه . ثم هو اليوم يواجه به أعنف امتحان فى تاريخ إنسان . .

﴿فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾

وهاهو ذا صبرُ الوالد . . وحلم الولد يمتزجان . . ليكون ذلك الموقف النبيل. فما الذى حدث؟

لم يكف إبراهيم ما لاقى من محاولة إعدامه حرقا . . ثم مِنْ تحرش قومه به . .حتى امتُحن بذبح ولده . . ولنتأمل عمق الدرس هنا . . لندركَ عمق الانتصار أيضا:

فإبراهيم عليه السلام والد . . . بلغ من الكبر عتيا . . . يؤمر بذبح ولده . . ولده الوحيد . . الذى ظل فى وعيه أملا عزيزا . . ويذبحه . . بيده هو . . ومتى؟ فى الوقت الذى بلغ فيه الولد مرحلةَ مساعدةِ أبيه على لأواء الحياة! .

وكان على الخليل أن يقاوم أشواق السن . . . وعرامة الحنين . . إلى ولد: يكلف اليوم بذبحه مطفئا بيده شعاع آمال العمر الطويل . . . **﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين﴾**

وهكذا يجىء نصر الله والفتح . . وفى اللحظة التى أسلم فيها الوالد وولده وجههما إلى الله . .

[طفولة أو رجولة]

وإذا كان الخليل عليه السلام قادرا على اقتحام العقبة بما منحه الله تعالى من الرشد المبكر . . فما بال فتى صغير يستقبل مع رفاقه بواكير حياته بآمال عراض فى مستقبل واعد . ؟

إن وراء هذا الموقف العظيم . . والد . . وداعية عظيم: فالوالد يتلطف بابنه: يا بنى . . . ثم إنه لم يلق القرار عليه حاسما . . بل إن الأمر: رؤيا . . فى منام . . لكنها على أى حال رؤيا مؤكدة: **﴿إنى أرى﴾**

والأمر أولا وأخيرا متروك لاختيارك أنت: ﴿فانظر ماذا ترى﴾

وتجيء الاستجابة مباشرة وفورية .. بلا حرف عطف: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾ وترتفع الطفولة إلى مستواها العالى حين يعين الصبى أباه على تحمل الموقف: ﴿ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾.

ورحم الله والدا أعان ولده على بره .. ورحم الله داعية يعين المدعو على أمر الله .. وبرُّ الولد هنا بوالده؛ ليس صلة مالية .. ولكنه البر الذى يكلفه الحياة .. فى أوج تشبثه بالحياة .. فى صباه! .. وحاجة أمتنا اليوم - وفى ضوء هذه الدروس - حاجتها ماسة إلى آباء صالحين يضحون بما يشتهون فى سبيل الحق.. وإلى أبناء طائعين .. يضحون .. فى سبيل دينهم وأمتهم .. وبهذين الخلقين.. نستنزل نصر الله.

أما بعد: فإذا صنع قوم إبراهيم عليه السلام آلهة نحتوها .. ثم عبدوها .. فإن أقواما الآن يضاهئون فعل الذين كفروا من قبل فصنعوا بأيديهم قوانين وتقاليد: محلية ومستوردة ثم حاولوا إلباسها الشرعية خادعين .. أو مخدوعين.. ونحن نجدد دعوة الأنبياء نصك بها آذان قوم لا عذر لهم فى استيراد نظم من الخارج بعد أن وضحت دلائل التوحيد .. إن هذا لهو الدواء الوحيد . يا أمة التوحيد.

*****

صعوبة المهمة

يقول الله تعالى فى سورة الشعراء:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٩ـ٧٨].

فى حديث سابق. ذكرنا من سورة «مريم» ـ وهى متقدمة فى النزول على سورة الشعراء ـ كيف واجه إبراهيم عليه السلام أباه بالحق المبين مواجهة انتهت بوقف الحوار . . ثم اعتزاله قومه . . إلى حين.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام لم يحقق هناك نصرا حاسما . . فقد لجح فى إعلان كلمة الحق . . التى أحرج بها أباه . . بما ساق من أدلة كشفت عنه فساد اختياره . . فى أسلوب تميز بالحلم . . والعلم . . والحكمة. . وكان ذلك تمهيدا للدخول بالدعوة فى ساحة أكبر اتساعا . . جمع فيها بين أبيه وقومه فى قرن . . ثم حاصرهم جميعا ببراهينه الآخذة . . فى نبرة أعلى . . وأسلوب أنكى . . وذلك ما تكفلت به آيات سورة الشعراء. التى نحن بصدد التعليق عليها.

وقد افتتحت سورة الشعراء ببيان كيف بلغ الضيق بالرسول ﷺ حدا قيل له عنده: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾.

وتجىء قصة إبراهيم عليه السلام فى وقتها المناسب مع بقية قصص الأنبياء قبله دليلا على الطريق . . لتربط على قلبه . . وتثبيت قدمه على الطريق . . . وفى هذا المعنى يقول الألوسى:

[واذكر قصة كذا .وما جرى له مع قومه من التكذيب. . .مع ظهور الآيات . وسطوع المعجزات. . .لتعلم أن تكذيب الأمم لأنبيائهم ليس بأول قارورة كسرت، ولا بأول صحيفة نشرت. فيهُون عليك الحال. وتستريح نفسك مما أنت فيه من

البلبال] ا. هـ.

ويعنى ذلك: أن إبراهيم عليه السلام كان أشد منك حزنا . حيث رأى أباه يقدم قومه إلى النار. ولم يستطع إنقاذه منها. . .لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة الجهاد . . فسر على طريقه . . ولتكن لك فيه أسوة حسنة: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] .ثم اتل على قومك من قصته ما ترهب به أعداءك. . .

وليس المراد بالتذكار أن يلقى السلاح؛ليستريح من هموم الدعوة وتبعاتها. . وإنما المراد: توجيه طاقته . . وطاقة الدعاة من بعده إلى مجالات أخرى مثمرة . . بدل أن تذهب حسرات على قوم معاندين . . مصرين على الضلال وذلك قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾.

لقد كانت حياة إبراهيم عليه السلام حافلة بالمواقف العظام . . ولكن الله تعالى يأمر الرسول ﷺ أن يركز على هذا الموقف بالذات . . حين واجه أباه وقومه معه هذه المواجهة الجادة. . فى موقف لابد فيه من حشد طاقات الداعية النفسية والعقلية مخاطرا بنفسه . . . فى سبيل إعلاء كلمة التوحيد: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾

إنها كلمة واحدة يقولها ﴿... ما تعبدون﴾؟ ولكن . . كما يقولون . . . قليل إلينا غير قليل:

لقد بدأ بها حربا ساخنة. . تحمل مسئولياتها . ومضاعفاتها: يقول صاحب الظلال:[إنها المعركة بين وجودين: لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام. . . المعركة بين تجمعين متضادين: كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماما للقاعدة التى يقوم عليها التجمع الآخر.

فالتجمع الجاهلى يقوم على تعدد الآلهة . أو تعدد الأرباب. ومن ثم يدين فيه العباد للعباد. . .والتجمع الإسلامى يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ومن ثم . . لا يمكن دينونة العباد للعباد.

إن عقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت.ومصالحهم فى كل زمان. . .] ا. هـ

ولأن إبراهيم عليه السلام يدرك هذا الفارق الهائل .. ويقدر مضاعفات المواجهة .. فإنه لا يفرض عقيدة التوحيد فرضا .. فى ظروف غير مواتية .. وإنما يفتح مع القوم حوارا .. يشترك فيه الطرفان .. بحثا عن الحقيقة الضائعة.. ﴿ما تعبدون ...﴾

وقد بدأ الحوار بهذا الاستفهام.. وهو استفهام تحقير. يراد به تحديد ماهية المعبود .. وفيه أيضا من السخرية ما فيه ... ولكن: لأن السائل الحكيم لم يفصح علانية عما يمكنه من تحقير لهم وسخرية بهم .. فإن جواب القوم يجىء بسيطا .. خاليا من رد الفعل العنيف: ﴿قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين﴾

والمعهود فى الأجوبة القرآنية أن تكون على قدر السؤال مثل قوله تعالى:

﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾.. ﴿ماذا أنزل ربكم . قالوا خيرا﴾

ولكننا نلاحظ الإطناب فى جواب القوم فلماذا؟

١ ـ لعله أن يكون بدافع الافتخار والزهو.

٢ ـ أو هو العجز الذى منعهم من ضبط الجواب . الذى كان يكفى أن يكون: «أصناما».

صعوبة المهمة

ويكشف الجواب عن طبيعة المعركة هنا بين الحق والباطل:

فإبراهيم عليه السلام يواجه قوما رضوا بأن يكونوا على ما قيل: لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم .. رضوا بأن يكونوا كالشخوص الصامتة ... تحت رحمة حجارة خرساء لا تغنى عنهم شيئا .. وإذن فما أبعد مسافة الخلف بين الطرفين .. وبالتالى ما أحوج الموقف إلى طبيب نفسى... يشخص العلة .. وينجح فى وصف الدواء .. وذلكم هو إبراهيم عليه السلام..

لم يقدم المعاندون جوابا شافيا لعبادة الأصنام .. لأنهم يعرفون سلفا خلوها من أدنى صفات المعبود... ويتقدم الداعية الحكيم، لينوب عنهم فى إعلان إفلاسهم .. حين يحاصرهم بالأسئلة كأنها السيوف المصلتة .. الكاشفة عن زيفهم . وزيف ما يعبدون من دون الله.. .لقد أحالهم إلى الواقع الماثل .. الذى سوف يجيبهم بما يَبْهتهم .. وصوت الواقع أعلى: ﴿قال هل يسمعونكم إذ

تدعون أو ينفعونكم أو يضرون﴾.

ومحاكمة المعاندين إلى الواقع المشاهد واحد من أنجع أساليب القرآن الكريم فى إلزام الخصم . . .فقد يكون فى تفكيرهم ثُغرة . . وعلى الداعية أن يسدها بما يعترفون هم به فعلا من مشاهد حياتهم.

ألم تر إلى القرآن الكريم حين حاكم المشركين إلى واقعهم لما أكلوا خير الله . ثم عبدوا غيره؟ لقد واجههم بهذا المعنى:

إنه لم يحدث قط أن سوى الغنى بين نفسه . . وبين عبده فى شيء. . فكيف يُسوَّى بين المخلوق والخالق؟

وهذه مفارقة يصرخ الواقع ببطلانها . . .وهذا ما فعله الداعية هنا: إبراهيم عليه السلام: لقد واجههم بالحق المر: إن آلهتكم لا تسمع . . ومن ثم لا تعرف مقاصدكم.

﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾.

فماذا يبقى لكم من مسوغات الاتباع.

هل ينفعونكم أو يضرون؟

أبدا . . لقد فقدوا صلاحية الضر والنفع . . فصارت بذلك كما مهملا خاليا من أمارات الحياة. . .وإلا . . فقد يخلو الإنسان من إرادة النفع . . لكنه لا يخلو من إرادة الضر. . فإذا خلا من الإرادتين معا . . فهو غير موجود. .ذلك بأن من صفات الإله: القدرة . والعلم . . لأنه يستحيل أن يكون الإله عاجزا جاهلا.

وآلهتكم ليست كذلك . . فهى عاجزة جاهلة . . فيستحيل أن تعبد من دون الله القادر العليم . . بل إنها بفقد العلم والقدرة غير موجودة أصلا . . وأين هى من الإله الذى هو حى لا يموت.

الحوار مستمر:

ولقد كان من الممكن أن يقطع الداعية الحوار . . بعد ما تبين العوار . . ولكنه يستدعى كل ما يمكنه من حكمة ليستمر . . . فلعل وعسى. . . إن القوم مهما كان جحودهم. . . يملكون العقل والاختيار. . والعقل: مناط التكليف . . والاختيار: سبب الجزاء.

وكان الداعية هنا قبسا من رحمة الله تعالى .. فواصل المسير .. ولم يترك العقل يتخبط .. بلا نور .. ولم يترك الاختيار طائشا .. بلا توجيه .. مدركا قانونا من قوانين النفس الإنسانية هو:

أن التعصب راجع إلى مرض نفسى دفين .. يمنع المرء من النظر إلى القضية من كل زواياها .. وستظل النفس متأبية .. نافرة .. فإذا لانت القلوب .. انحازت للحق .. لأن خُلُق الداعية حينئذ يقف إلى جانبه كسلاح يكسب به القضية.. فإذا آمن المدعو .. فبها .. وإلا .. فقد فعل الداعى أجمل ما يليق به..ويكفى أن الداعى ضيّق عليه الخناق هنا .. فبات صفر اليدين من الأدلة المقنعة .. وها هم أولاء قومه يلوذون بالتقليد تفسيرا لضلالهم. وذلك قولهم:

﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ .. وإذن .. فقد نجح الداعية فى إلحاق الهزيمة بالمدعو .. وفى نظر نفسه .. وهى لحظة من الضعف الإنسانى تتيح للداعية الحصيف أن يضرب ضربته .. والحديد ساخن .. وكذلك فعل الخليل عليه السلام.

*****

من فقه الجواب

يقول الله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الآيات من سورة الشعراء: ٧٢ـ٧٤]

مع نصوع الحجة على لسان إبراهيم عليه السلام .. ومع قسوة الواقع الشاهد بتفاهة ما يعبد المشركون .. بل مع إقرارهم أنفسهم ببطلان ما يعتقدون .. إلا أن المعاندين مازالوا يهرفون..وها هم أولاء يجيبون .. مع اقتناعهم سلفا بخطئهم: **﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾**

وإنك لتلمح فى الجواب بارقة من الذكاء يتسلح به المعاندون دائما للشغب على الحق:

فلو أنهم قالوا: نعم يسمعوننا .. لسجلوا على أنفسهم رذيلة الكذب...ولو قالوا: لا يسمعوننا .. لحكموا عليها بالجهل والسفه..وخروجا من هذا المأزق تراهم وقد علقوا ضلالهم على شماعة التقليد.

ولكن هل نفعهم ذلك الجواب الماكر الخاطئ؟ أبدا .. لم ينفعهم، فعلى فرض أنهم يقلدون الآباء .. فلماذا الإصرار على تقليد آباء السوء؟لقد كان الأليق بهم أن يقلدوا نبى التوحيد عليه السلام.

وهل حدث أن حاول أحدكم يوما إغماض عينيه المبصرتين ليمشى وراء صاحب له غير مبصر؟

لم يحدث هذا .. ولن يحدث .. وإذن .. فبأى منطق تفعلون شرا من ذلك حين تغمضون عقولكم .. بل تلغونها بالمرة .. ماشين وراء أمة سلفت .. لها ما كسبت ولكم ما كسبتم؟

ونذكر هنا ما قاله «الرازى» تفنيدا لأوهام المقلدين وعودا بهم إلى الحق المبين:

قال: [يقال للمقلد: هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الإنسان أن يُعلم كونه محقا أم لا؟ فإن اعترفت بذلك .. لم تعلم جواز تقليده إلا بعد أن تعرف كونه

محقا . . فكيف عرفت أنه محق؟وإن عرفته بتقليد آخر . . لزم التسلسل. . .وإن عرفته بالعقل . . فذلك كافيك . . فلا حاجة إلى التقليد.

وإن قلت: ليس من شرط جواز تقليده أن يُعلم كونه محقا . . فإذن قد جوزت تقليده وإن كان مبطلا . . فإذن . . أنت على تقليدك لا تعلم أنك محق أو مبطل. وهب أن ذلك المتقدم كان عالما بهذا الشيء . . إلا أنا لو قدرنا أن ذلك المتقدم ما كان عالما بذلك الشيء قط . . وما اختار فيه ألبتة مذهبا . . فأنت ماذا كانت تعمل؟ فعلى تقدير أنه لا يوجد ذلك المتقدم . ولا مذهبه . . كان لابد من العدول إلى النظر . . فكذا هنا] أ.هـ

وإنها لدعوة ملحة مخلصة إلى تحرير العقل من ربقة العبودية . . بقدر ما هى تحريض للإنسان على أن يسترد كرامته ليعيش بالإيمان عزيزا كريما.

[الداعية يمسك بزمام المبادرة]

وإذا بدا هنا للمبطل أنه مَلَكَ ـ ولو للحظة ـ وسيلة يشغب بها على الحق . . فإن الداعية اليقظ يتصدى لحملة التهريج. . إن مائة من العقلاء يمكن أن تنتصر عليهم . . بالبرهان . . ولكن ما الحيلة وخصمك يحمل على كتفيه عقلا غريرا وبصرا كليلا؟

لقد قال الفلاح الأمى لأخيه العالم يوما: فى إمكانى أن أغلبك . . فبُهت أخوه العالم من الدعوى . . لما قال له أخوه الفلاح: عند التافه . . أتوقف بك فلا تستطيع الغلب؟!ولكن إبراهيم عليه السلام يطوق المبطل حتى لا يلتفت من بين يديه. .وخطته: تجريد المبطل من أوهامه. .المبطل: الذى حاول الهروب فى مغارة أو مدخل حتى لا تطوله يد الداعية. .

لقد بدأ الداعية يجرده من أسلحته ليبدو أمام نفسه. .وأمام الناس عاريا. .وتبدو كذلك قضيته التى يدافع عنها لا تساوى ملء قبضته نخالة. .وإذا يحقق الداعية ذلك . . فإنه يجد نفسه على أرض المعركة وحده. .بعد أن خضد شوكة عدوه . حين وضع معتقده الفاسد تحت أشعة الحق فإذا الباطل زاهق.

وهكذا كان موقف إبرهيم عليه السلام . . والذى خطا خطوته الثانية بإعلان براءته . . وعلى الملأ . . من معبوداتهم . .وجاء ذلك فى الوقت المناسب . .

وبعد أن بدا العابدون .. وآلهتهم المزيفة أصفارا على الشمال: ﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون.أنتم وآباؤكم الأقدمون.فإنهم عدو لى إلا رب العالمين﴾

ولاحظ أن إعلان البراءة لم يكن من الداعية أولا .. وإلا كان سابقا لأوانه.. غير محقق لأهدافه..بيد أنه يجىء فى الوقت المناسب..فمع أن بلاغة الموعظة ضرورة حتى يبلغ بها الداعية قرار النفوس .. إلا أن توقيت الموعظة من الأهمية بمكان..وهكذا تقول الطبيعة من حولنا .. بلسان حالها: إن بعض الطيور تأكل .. لكنها تتوقف عن الأكل قبل الغروب بساعة .. بل إن معظم الزهور تبث رحيقها فى الجو بضع ساعات يوميا .. وفى مواقيت محددة ..

والنحل فى ذاته مَدْرسة: إنه .. وعندما يقرر الذهاب لامتصاص الرحيق...يتخير الوقت المناسب .. كما يختار أفضل المواقع .. ثم يستخدم علامات مميزة يحدد بها الاتجاه .. كما يقدر النحل موضع الشمس فى السماء .. وعندما تتلبد السماء بالغيوم .. يكيف النحل نفسه باستقطاب ضوء الشمس من خلال السحب.

وهكذا الداعية الذكى الذى يقول كلمته .. وبحساب .. وفى الوقت المناسب .. شىء واحد يميزه عن النحل.

فالنحلة تعامل أعضاء مجتمعها التى لا فائدة منها بقسوة بالغة .. حين تقذف بها .. وبكل بساطة .. خارج الخلية .. لكن الداعية الإنسان قد يقسو على المدعو .. ولكنها القسوة الحازمة التى لا تقطع الخيط .. ويظل أملها فى هداية المدعو موصولا .. لأنه يتعامل مع الحياة بمنطق الإيمان .. ولا يأس مع الإيمان.

[من فقه الجواب]

وقد ظهر ذلك من فحوى جوابه عليه الصلام والسلام

﴿.. فإنهم عدولى إلا ربَّ العالمين﴾

وكأنما يريد عليه السلام لفت أنظار القوم إلى أن هناك عدوا مشتركا هو هذه الأصنام .. وهو الذى ينبغى أن يخاصم.

أجل .. إنها عدو الإنسان الحقيقى .. بما جلبت عليه من وحشة وحسرة وضياع..وإذن .. فقليل من التفكير ـ لو أرادوا ـ كاف فى هدايتهم إلى أن

إبراهيم عليه السلام ليس هو عدوهم .. كيف وهو بدعوته يحاول تعديل خط سيرهم ليسلموا وجوههم إلى الله ... فارِّين بهذا الاستسلام من شقوة الأبد..

إن عدوهم الحقيقى بين أيديهم .. وهو: الأصنام .. ولكنهم لا يشعرون. والعاقل الحريص على مصلحته مطالب أن يغيِّر سمته .. وأن يراجع حساب ربحه وخسارته .. قبل أن يذهب فى الأرض حيران.

[حتى تظل الجسور ممتدة]

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا: لماذا لم يقل الداعية فإنهم عدو لكم .. وآثر أن يقول: فإنهم عدولى... مع أن الأصنام عدولهم بالدرجة الأولى بما أحدثت فى أنفسهم وواقعهم من خراب؟

والجواب: أنه عندما لا تتكافأ القوى بين الداعية والمدعو .. فأوفق الأساليب...الرفق والحيلة .. المانعة من نشوب معركة مبكرة لم يستعد الحق لها.

وهذا واضح من منطق إبراهيم عليه السلام: فمع أن الأصنام عدو لدود لكل عابد لها .. عاكف عليها . من حيث إنها سبب عذابه فى الدنيا وعقابه فى الآخرة..! إلا أنه يركز على نفسه هو قائلا: **﴿فإنهم عدو لى﴾**

يقول ذلك: تورية ... وإيماءة من بعيد .. ثم إنصافا للخصم من نفسه تفاديا من الصدام المباشر، حتى تظل جسور التفاهم ممتدة..

وهذا أسلوب فى الدعوة يحقق ما يلى:

١ ـ فلأنه أبلغ فى النصح. ٢ ـ وبالتالى أدعى للقبول من الأسلوب المباشر.

٣ ـ فهو أجدر أن يُبقى على الداعية فى مكانه يمارس وظيفته فى أمان من غدر المبطلين.

إنك إن تسحب البساط بعنف من تحت قدم الواقف عليه .. إن فعلت ذلك نبهته أولا .. ثم أيقظت فيه غريزة العناد لينازعك على البساط .. وقد تنتهى المعركة لصالحه هو .. مع أن الحق فى يمينك أنت..ولكى يبقى الحق فى يمينك لابد أن تسحبه بهدوء .. تفاديا لردود الفعل .. وليجد المدعو نفسه فى نهاية الشوط .. على الأرض!.

يقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿فإنهم عدو لى﴾ [على معنى: أنى فكرت فى أمرى: فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو . فاجتنبتها. وآثرت عبادة مِن الخير كله منه. . .وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا . . .وبنى عليها تدبير أمره. لينظروا ويقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه. وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه، ليكون أدنى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه.

ولو قال: فإنهم عدو لكم. لم يكن بتلك المثابة. ولأنه دخل فى باب من التعريض . وقد يبلغ التعريض بالمنصوح ما لا يبلغ التصريح. .لأنه ربما يَتَأَمل فيه. فربما قاده التأمل إلى التقبل.

ومنه ما يحكى عن الشافعى رحمه الله: أن رجلا واجهه بشىء فقال:لو كنتُ بحيث أنت لاحتجتُ إلى أدب . وسمع رجل ناسا يتحدثون فى الحِجْر فقال: ما هو بيتى ولا بيتكم] أ. هـ

فإن فعل الداعية ذلك . . فأنصف المدعو من نفسه فرض عليه احترامه. . فإن لم ينجح فى اتخاذه على درب الحق رفيقا . . فيكفى أن يكون له صديقا . . ومن لم تنجح فى مصادقته لا تتخذه عدوا على الأقل.



القسوة... أحيانا

يقول الله تعالى:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء: ٧٥ـ٨٢]

من مظاهر التقليد . . . أن يستسلم المقلد لواقعه الصارم . . وقد يظن فى ضباب الغفلة أن موقفه فوق النقد . . ومن ثم . . لا يستعد للدفاع عنه . . وهذه نقطة ضعف ينبغى استثمارها لصالح الدعوة . . .

وقد استثمرها الخليل عليه السلام بوسيلة التفنيد والتأييد معا: تفنيد موقف الخصم . . ثم تأييد الحق على لسان الداعية . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فإنهم عدو لى إلا رب العالمين﴾

فالذين يدعون من دون الله . . لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.

وحين يمضى المرء معصوب العينين من وراء الآباء ولاءً لأصنام لا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا . . إنما يمضى . . فى متاهة يدور حول نفسه . . ثم تكون القاضية. . ولن تجد أشد عداوة للإنسان ممن يقوده إلى هذا المصير الرعيب . .ولن تجد أقرب إليه مودة ممن يمد إليه طوق النجاة والذى أنعم عليه بنعمة الخلق . . والرزق . . والهداية . . والشفاء . .

وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام: ففى مقام الاحتجاج على المشركين على غفلة قلوبهم . .ومضيا مع وخز ضمائرهم ليشعروا بمعرة الشرك . . يسوق إليهم ـ بعد تفنيد مزاعمهم ـ يسوق إليهم طرفا من نعم الله تعالى عليهم . . فلعل التذكير بهذه النعم أن يفتح أمامهم بابا إلى التفكر فيها . . لعلهم أن يفيقوا من سكرة التقليد.

والداعية الناجح هو الذى ينقل المعركة من المظاهر إلى داخل النفس . . حين

يثير فيها كوامن الأحاسيس . . ويفتح لديها عيون المدارك . . لتتحرك حركة ذاتية إلى البحث والنظر . . .وما أكثر المعارك التى تدور حول القشرة الظاهرة بلا نتيجة . . بينما الأعماق هناك راكدة ساكنة . . جامدة، تتطلب اليد الصناع القادرة على إثارتها لتقول كلمتها . . فالإنسان الراشد إنما يساق من باطنه . . لا من أذنه. لقد كان جواب المقلدين مخجلا . . ولكنهم ـ كما يقول صاحب الظلال.

[ولكنهم لم يخجلوا أن يقولوه . فقد كان فعلُ الآباء الأمرَ كفيلا باعتبار. دون بحث. بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آبائهم فَيُخلُّوا باعتبار أولئك الآباء ـ وهكذا زعموا ـ لأن فى ذلك إقرارا ضمنيا بأن آباءهم كانوا على ضلال ـ وذلك ما لا يكون فى منطق الجاحدين الغافلين وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات فى وجه الحق، فيؤثرونها على الحق فى فترات التحجر العقلى والنفسى، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفكير. . .وأمام هذا التحجر . . لم يجد إبراهيم عليه السلام ـ على حلمه وأناته ـ إلا أن يهزهم بعنف . . ويعلن عداوته للأصنام . . وللعقيدة الفاسدة التى تسمح بعبادتها لمثل هذه الاعتبارات]أ. هـ.

ولم يكن قصارى إبراهيم عليه السلام أن ينتصر فى معركة كلامية . . كما لم يكن من هدفه تصفية حسابات قديمة . . لكن هدفه الأكبر: تحويلهم إلى القبلة الجديدة. . ليديروا ظهورهم لأحجار لا تنفع . . بل لا تضر. .ثم يتجهون بوجودهم كله إلى الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

وتلك هى النقلة البعيدة التى بدأ يُعدهم لها . . وذلك قوله تعالى: ﴿فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين﴾ الآيات .

ولاحظ فى هذا الأسلوب الحكيم ما يلى:

١ ـ فيه لون من القسوة الحازمة . . وهى قسوة الطبيب يرى فداحة العلة التى تسرى فى جسد المريض. فيتخذُ قراره وإن كان مرّ المذاق . . رحمة بالمريض نفسه. . وهو المعنى الملحوظ فى قول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما   فليقس أحيانا على من يرحم

إنها القسوة . . أحيانا . . وفى بعض منعطفات الطريق . . وليست هى القسوة الدائمة.

٢ ـ ثم إنه عليه السلام يلفت أنظارهم إلى أمور واقعية.. يُقرون بها .. من حيث اقتناعهم سلفا بأن الله هو الخالق الرازق .. وآثار نعمه تعالى ظاهرة للعيان.. لا يختلف فيها اثنان..

ومعنى ذلك أنه عليه السلام لم يواجه القوم بمقدمات فلسفية قد تغرق القوم فى متاهة تسلم إلى أخرى. وهكذا وتلك هى واقعية المنهج الإسلامى فى الدعوة:

لا يحلّق الداعية خلف الغيوم .. ذاهبا إلى النجوم .. وإنما هو يمشى مع الناس على أرضهم..

إن الصعود فى جو السماء ذاهب بنسبة من «الأكسجين» تجعل الصدر ضيقا حرجا..

وعلى الدعاة أن يحرثوا .. لا فى البحر .. ولكن فى الأرض وأن يزرعوا .. فى الهواء .. ولكن فى الغبراء.

وهذا هو الداعية الحكيم ينجح فى إحباط معتقد القوم ... واصلا بهم إلى آثار رحمة الله .. وهو المعبود الحقيقى .. والذى يُنقذ عباده من هوانه .. من وحشته .. وحسرته.

يقول ابن القيم رحمه الله: (فى القلب شعث .. لا يلمه إلا الإقبال على الله...وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله...وفيه حزن .. لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته . وصدق معاملته...وفيه قلق .. لا يسكّنه إلا الاجتماع عليه . والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات .. لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه. وقضائه . ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه...وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته. والإنابة إليه . ودوام ذكره . وصدق الإخلاص له...ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا)[١].

وهكذا يكشف الداعية النقاب عن آلهة مزيفة .. لا وجود لها إلا فى خيال عابديها .. آخذا بأيديهم فى نفس الوقت .. إلى حيث فتح أبصارهم على آثار رحمة الله .. المعبود الحقيقى .. مصححا بذلك مفاهيم خاطئة عششت فى

(١) مدارج السالكين.

أدمغتهم طويلا . . وخروجا بهم من فهمهم القاصر للأمور إلى فهم أرحب . . ينجيهم من الحزن . . . والقلق . . والوحشة والفراغ.

ولقد كان لِنَسق الآيات الكريمة دوره الفعال . . فى تطويع القلوب لتسلم زمامها للحق: أى أن نجاح الداعية مردود إلى حكمته . . ثم إلى طريقته . . إلى أسلوبه الواقف معه فى حلبة الصراع . . يُزيِّن الحق . . ويغرى النفوس بالإيمان.

وذلك واضح مما يلى: إن ضمير الفصل «هو» ذكر مع: الهداية . . والإطعام. . والمرض والصحة . . ثم لم يذكر فى قضية الموت والحياة. .لقد ذُكر ضمير الفصل تأكيدا فى قضايا قد يظن الناس أن لهم فى تحقيقها كسبا ومجهودا. . ليعلموا أن الكلمة الأخيرة فيها ليست إليهم. .

وإنما هى أولا وأخيرا بيد القادر سبحانه وتعالى. .فالهداية . . منه وحده. .والشفاء ليس كما يظنون ـ راجعا إلى الطبيب . . وإنما هو بتقديره تعالى. . .وما البشر هنا إلا مجال من مجالات القدرة الإلهية . . يصرف الله تعالى أمورهم كما يشاء.

ولما كان الموت مما لا يشك أحد فى أنه من الله تعالى . . لم يكن هناك داع لذكر ضمير الفصل معه.

وعلى هذا المنوال ينبغى أن يسير الدعاة. . .فلا يكفى أن أمْلِكَ الإخلاص. . . وإنه لشىء عظيم حقا. . .ولكن لابد معه من: حسن العرض . . وبلاغة الخطاب . . لتقف الكلمة الطيبة إلى جانب الداعية سلاحا من أسلحته . . يغير الله به من واقع الناس ما يشاء سبحانه . مستجيشا أشواق النفوس إلى الهداية. .وإلى جانب حكمة الأسلوب . . أدب التصرف يتميز به داعية لا يملك فقط أسلوبا رائعا وإنما يملك التصرف الرائع أيضا.

إن إبراهيم عليه السلام لم يقل: [والذى أمرضنى] وإنما قال: ﴿وإذا مرضت﴾.

وذلك درس من دروس الأدب مع الله تعالى . . نشتق منه درسا آخر حين يخاطب الصغير الكبير . . والأمىُّ . . العالم . .

وأمر آخر قد نلمحه من بعيد:

إن إبراهيم عليه السلام يسجل هنا: بأن مرض الإنسان من نفسه: جسميا كان

هذا المرض أو نفسيا أو اجتماعيا . . وعليه أن يتخذ سبيله ليبرأ من علته. . وقبل أن نطوى هذه الصفحة من دعوة الخليل عليه السلام يبرز درس بليغ يؤكد حكمة الداعية الذى يهدم الباطل . . ثم ليبنى على أنقاضه الحق . . فلم تكن مهمته فقط أن يزيل المنكر . . بل كان لديه مشروع يبنى به المعروف فوق أنقاضه وذلك ما عناه الشاعر القائل:

لا تقل عن عمل ذا ناقص   جئ بأوفى ثم قل ذا أكمل
إن يغب عن عين سارٍ قمر   فحرام أن يـــلام المشعـل

*****

قيمة العلم

يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ . وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٢-٨٩].

يُبتلى الحق دائما بأعدائه .. ليُعلم إلى أى حد يغار الدعاة عليه..

ولقد ابتلى إبراهيم عليه السلام بكلمات فأتمهن .. ثم ابتلى بأبيه وقومه .. فخرج من الابتلاء منتصرا بما من الله تعالى عليه من رشد وحكمة...لقد رأى أباه هاربا من سيده .. ومن ورائه قومه فناداهم .. ليعود الأبقون إلى ربهم .. قبل أن يستحوذ عليهم الشيطان .. فكان منهم ما كان...ومع وصول الحوار إلى طريق مسدود .. ومع وصول خطاب القوم إلى حد المهاترة .. إلا أنه ظل محتفظا بحكمته .. بشجاعته..فليست الشجاعة أن تشجع على غيرك .. وإنما الشجاعة أن تشجع على نفسك .. فلا تغضب..وربما كانت الشجاعة ... أن تجبن ساعة ..ساعة تطأطئ رأسك للإعصار ليمر من فوق رأسك بسلام .. فتفوت الفرصة على أعدائك المتربصين بك .. كاشفا فى نفس الوقت عن دوافعهم الدفينة والتى تحملهم على التصدى لمن جاءهم بالهدى:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله ... فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء: قلن لوجهها ... حسدا وحقدا إنه لدميم

ولكن .. ما هى الخصائص التى جعلت الخليل عليه السلام يخرج من الجولة بإكليل النصر يتوج هامته؟ ذلك ما تتكفل ببيانه الآيات الكريمة ليكونِ البيان دروسا للدعاة فى كل زمان.

لقد انطلق ـ كما بان من الحديث السابق ـ انطلق فى دعوته من قاعدتين:

١ ـ جهاد فى سبيل الله تعالى حين واجه قومه بفساد ما هم عليه .. وخطر

ما هم صائرون إليه.

٢ ـ ثم ثناء على الله تعالى بما هو أهله من صفات الكمال والجمال .. ورجعُ كل حول وطول إليه سبحانه..ثم هاهو ذا اليوم يكشف عن جوانب من العظمة فى شخصيته: لقد اعترف بضعفه، وحاجته المتجددة إلى مغفرة ربه سبحانه... وذلك قوله: ﴿والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾

وتصوروا: إبراهيم .. الخليل..الأواه..الحليم..التقى..يتَّهم نفسه.. ولا يبرئها من الخطأ .. فرارا من الغرور .. الذى هو آفة العمل.

وليت شعرى: كم أحس بالحرج من هذا المنطق الجليل على لسان داعية أبيض السيرة نقى السريرة وأقول لنفسى:فكيف بك اليوم .. وخطاياكِ ما تعرفين .. فلتكن توبتك تصحيح النظرة تسديدا للمسار: فإلى نظرة إلى عيوبك .. فرارا منها .. ثم نظرةٍ إلى محاسن غيرك .. تأسيا بها

[قيمة العلم]

وهكذا انطلق الداعية من قاعدة العلم .. علمه بنفسه أولا .. بقصورها وضعفها ثم فرَّ إلى ربه داعيا .. فكان على رجاء القبول .. وقد برزت قيمة العلم واضحة فى دعائه عليه الصلاة والسلام: ﴿رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين﴾

وقد ضُمت الآية الكريمة على أمرين:

والقوة النظرية.. والمشار إليها بقوله: ﴿رب هب لى حكما﴾.

ثم القوة العملية .. وذلك قوله ﴿وألحقنى بالصالحين﴾..

وألقوه النظرية صفة الروح .. والقوة العملية صفة البدن..

ويعنى ذلك أن الداعية يطلب من ربه نعمة اكتمال العدة ليواجه القوم بروحه وبدنه معا..

ولما كانت القوة النظرية أقوى سوّغ ذلك تقديمها فى الذكر؛لأنه ـ كما يقول المفسرون ـ يمكن للإنسان أن يعلم الحق . وإن لم يعمل به...لكنه لا يمكن أن يعمل بلا علم .. فالعلم ضرورى إذن لصحة العمل .. لدى كل إنسان . على

الأقل فى القضية التى يباشرها . وإن لم يكن عالما بإطلاق. . .إن العلم يعنى: إصابة الحق فى الحكم. . .والقوة العملية وحدها لا تكفى . . لأن الداعية لا يستهدف خضوع أعناق ولكنه يستهدف إنشاء اليقين فى الأعماق. . . ولا يتم ذلك إلا بالوعى المستوعب لأصناف المدعوين . . وكيف يواجه كلا بما يناسبه:

إن فى المدعوين: حاد المزاج . . والهادئ . . وهذه ناحية عصبية ـ

ومن الناحية الخلقية: فيهم أرباب المبادئ . . وصرعى المنافع.ومن الناحية العقلية: فيهم الذكى . . والأذكى . . والغبى والأغبى . . ولن تذهب العلة إلا بما يناسبها من دواء.

وقد نبه علماؤنا على ما لاجتماع القوتين من أثر فى بلوغ الكمالة فيما نباشر من أعمال.

جاء فى تهذيب الأخلاق:[الكمال الخاص بالإنسان كمالان:وذلك أن له قوتين: إحداهما: العالمة . . والأخرى العاملة.فلذلك يشتاق بإحدى القوتين إلى المعارف والعلوم . وبالأخرى إلى نظم الأمور وترتيبها. فإذا كمُل الإنسان بالجزء العملى . والجزء النظرى . فقد سعد السعادة التامة] أ.هـ

وصحيح ما يقال: إن الفضائل فضائل بالعمل بها. لا بالعلم بها . . وماذا يفيد العلم بأن الصدق حق . . إذا لم نعمل به . . وماذا يفيد التحدث عن الإيثار مثلا . . إذا لم يسارع فيه القائل والسامع على سواء.ولكن صحيح أيضا أن العلم نور كاشف يبصِّر العامل حتى لا يزل فيضل ويكفى أن نعلم أنه من ثمرات العلم: الخشية: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨].

وإذن فمن أهم المسؤوليات الداعية: التزود بالعلم . . وصولا إلى تكميل نفسه بقيمة الخشية . . ليفرض وجوده بها على من حوله: رغبا . . لا رهبا.

وإذا يبقى الجاهلون صيدا ثمينا فى يد الشيطان الذى يملى لهم . . فإن العالم يبقى بعلمه قدوة فى مجال التأثير. . .

يقول الدكتور المرحوم محمد سعاد جلال:

[خشية الله ومراقبته ركيزة العمل الصالح فى قلب المؤمن . ومادة الحياة فى ضميره ومهما عظم بأس الحكومات. فليس فى استطاعة واحدة منها أن تعيِّن

حارسا على كل فرد، أو على كل أسرة، يراقب خضوع أعمالهم لحكم الشرع. .لكن خشية الله وحدها هى الحارس الأعظم لكل فرد من التورط فى الشر. . .وخشية الناس تزداد فى نفوس الناس بمقدار علمهم بوجود الله تعالى. وبصفات كماله. والعلماء وحدهم هم الذين يبْلغون بعلمهم هذه الغاية.

والمراد بالعلماء: الناظرون فى مادة الكون وظواهره: من إنزال المطر. وإخراج الثمرات واختلاف ألوان الجبال . واختلاف الناس والدواب.

فإن النظر فى مادة الكون وحركات أجزائه . وما يشتمل عليه ذلك من دقة النظام، وكمال الإبداع . وعظمة الخلق أكبر دليل على وجود الله تعالى: ولزوم خشيته. . .وكذلك يُفهم: أن الإسلام دين العلم بمعناه الحديث . لأنه يبنى الإيمان على أساس العلم . وليس على التهاويل الغامضة. والإيحاءات المفتعلة] أ. هـ.

ولا يغيب عن البال: أن أعظم درجات العبادة: معرفة الله تعالى: ما يجب له. وما يستحيل عليه. والعالِم أكثر معرفة بذلك . . وأعظم المعاصى: الجهل به سبحانه وتعالى.

ولن يكون حديثنا هذا استطرادا فى بيان أهمية العلم . . بقدر ما هو لفت الأنظار إلى موطن من مواطن الأسوة فى أبى الأنبياء عليه السلام . . وأبى الدعاة. . على سواء. .وإذا كان رسولنا ﷺ مأمورا بالاقتداء به . . وبالأنبياء قبله فى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠].

إذا كان ﷺ مأمورا بذلك فنحن أولى بالاقتداء . . فى قيمة لابد منها ـ وهى قيمة العلم ـ والدأب[1] فى تحصيله . . قبل أن نتحمل مسئولية الدعوة. . .

ولقد وعى سلفنا الصالح هذه الحقيقة فظلوا يطلبون العلم من المهد . . إلى اللحد . . وقد يتبوأ أحدهم مكانه العالى فى الفقه. لكنه يظل محتاجا إلى أن يزداد فى كل يوم علما . . . وربما جاءته الحكمة ممن هو أقل منه شأنا:

لقد تعلم أبو حنيفة مسائل فى العلم من حلاّق . . أو تذكرها بعد أن نسيها: ويذكرون فى ذلك أنه لما أراد الحلق فى الحج أعطى الحلاق شقَّه الأيسر. . . فقال له الحلاق: أعطنى شقك الأيمن!ثم لما لم يستقبل القبلة قال له الحلاق: استقبل

(١) الدأب بالسكون وقد يحرك.

القبلة! ولما سكت أبو حنيفة قال له: كبِّر! فلما أراد الانصراف قال له: صل ركعتين!!

وتعجب أبو حنيفة وقال: حلاق .. ويعرف هذا؟ فممن عرفت؟ قال: من شيخك عطاء بن أبى رباح وكان عطاء شديد السواد .. مشلولا.

ولكن العلم كنز لا يعطى أسراره إلا لمن أعطاه كله.. فإن أخذ الداعية بحظه منه.. كان العلم له عينا باصرة .. تمكنه من تشخيص العلة .. ووصف الدواء: وهذا الذى عناه الشاعر.

الألمعى الذى يظن بل الظن .. كأن قد رأى وقد سمعا.

*****

آمال الداعية

يقول الله تعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ الآيات من سورة الشعراء: ٨٣، ٨٤].

تحدثنا عن أهمية العلم فى حياة الداعية .. وكيف كان ضوءا كاشفا ينير له معالم الطريق .. وإلى حد يصير به الداعية - بإذن الله - ملاذا يهرع إليه القلب الهلوع الجزوع فإذا هو آمن مطمئن .. على حداء الحكمة الهادية.

ولك أن تتصور فائدة العلم فى منطق ذلك الداعية العالم الذى فزع إليه رجل شاكيا لصا سرق داره فقال له:

أحمد الله فما أصابك فى الدنيا .. فهو كفارة لك يوم القيامة .. ثم احمد الله أن دخل بيتك لص من البشر يسرق منه الدنيا .. ولم يدخله إبليس ليسرق منه الإيمان.

لقد بَصُر الداعية بالحق فى القضية المعروضة .. فكان غوثَ اللهيف بما من الله عليه من حكمة بالغة ..

إن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس .. وإذا كان عاجزا يزحف على إليتيه كما أشار ﷺ .. ذلك بأنه كما أشار العلماء:

أ - يكتشف الحق بثقافة واسعة . فى علوم الدين والدنيا.

ب - وفى صحبة نفس صافية عن الأغراض والأمراض.

جـ - وعقل واع نفاذ إلى كبد الحقيقة.

وبهذه الملكات يغوص فى الأعماق.. ليستخرج الدرر من خبايا الأصداف.. بينما الجاهل غارق فى الظلام .. وقد يجرفه الغرور بعيدا عن جادة الصواب فإذا عمله سراب.

من أجل ذلك طلب إبراهيم عليه السلام من ربه القوة النظرية والعملية معا فيما حكاه القرآن الكريم عنه: ﴿رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين﴾

ولا نريد بذلك إنشاء جهتين متضادتين بين عالم ناقص العمل .. وعابد جاهل لنثير بها حربا. . ولكنا فقط نريد التنويه بشأن العلم والعلماء . . والتنديد بكل محاولة من سطحى يجعل من عبادته سوط عذاب يلهب به ظهور علماء . . يمكن أن يتخذهم قدوة له . . وأن يعيشا معا فى مربع واحد . . متكاملين . . لا متعاندين. .وإلا . . فلو كانت هناك مفاضلة بين عابد عالم . . مقصر . . وبين عابد جاهل مقلد . . لكان العالم المقصر أثقل فى الميزان لأنه دليل على الحق المقصود بالاتباع. . .وإذا كان ولابد من عمل مشترك فهو أن تتضافر الجهود . . لصياغة المسلم العالم . . العابد . . ليمضى إلى الله تعالى على قدميه.

أى أن المعركة الحقيقية التى يجب أن نخوضها اليوم . . أن نجاهد معا تحت لواء الحكمة التى هى علم . . . منته إلى عمل نجدد بهما حضارة آبائنا.

يقول البيضاوى فى تفسيره للآية الكريمة: ﴿رب هب لى حكما﴾ أى: كمالا فى العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق. . . ﴿وألحقنى بالصالحين﴾: ووفقنى للكمال فى العمل . لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ، ولا صغيره].

ولعمرى: إنه لمعلم من معالم الشخصية الإسلامية التى أثبتت به وجودها. وفرضت احترامها على الأمم عبر التاريخ.

يقول «جوستاف لوبون» فى كتابه «تمدن العرب»:[إن العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية. لم يهملوا تطبيقها على الصنائع . فقد أكسبت علومُهم صنائعهم جودة عظيمة جدا. . .وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك. فإننا نعرف نتائجها وآثارها: فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم . واستخرجوا منها الكبريت والنحاس . والزئبق والحديد والذهب. وأنهم برعوا جدا فى الصباغة . ومهروا فى صقل الفولاذ مهارة بعيدة المدى. وأنهم فى كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يُلحق لهم شأو فيها للآن].

ويبقى فى الدرس بقية:

فقد قدم الخليل عليه السلام لدعائه بما أدَّبه به ربه سبحانه . . وها هو ذا

يترجم بهذا الدعاء عن فطرة سوية تنشد الذكر الحسن على مدار الزمان: ﴿**واجعل لى لسان صدق فى الآخرين**﴾... ارزُقنى ثناء حسنا... بذرية صالحة يجدد الله تعالى بها الدعوة إلى التوحيد ليبقى الذكر موصولا..

ثم إنه لا يطلب مجرد الذكر.. ولكنه الذكر الحسن.. عن طريق ذرية صالحة تسير على نفس الدرب.. إلى ذات الغاية.. الغاية التى سار إليها آباءُ صدقٍ صالحون مصلحون.. لا يطلبون حسن السمعة بطرا ورئاء الناس..وإنما من أجل التمكين للتوحيد فى الأرض..

وهكذا يترجم الداعية عن ولائه للدعوة الممتد.. وعن شعوره ـ على ضخامة ما قدم من نفسه وماله ـ بضآلة عمره الذى لم يكف ليؤدى به للدعوى حقها.. ومن ثم.. تمتد به الآمال عبر المستقبل...إنه لا يعيش زمانه فقط.. وإنما يتطلع إلى هذا المستقبل.. العامر ببنين له وحفدة.. يحملون من بعده راية التوحيد.. التى تظل باقية فى عقبه.. ولئن قضى نحبه اليوم أو غدا.. فله فى ذريته الصالحة من بعده عزاء وسلوى.

وما تزال الآيات الكريمة تعطينا من صفات الخليل عليه السلام... ما يمكن أن يكون دستورا للدعاة على نهجه يسيرون:

لقد قدم عليه السلام للدعوة عمره كله.. وها هى ذى صفحات جهاده حافلة بالتضحيات العظام.. إلا أنه عليه السلام... ما يزال وجلا.. خائفا يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه.. وإذا قال قبل ذلك: ﴿**والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين**﴾ فإنه يقول هنا: ﴿**واجعلنى من ورثة جنة النعيم**﴾ مؤكدا بهذا الرجاء تواضعه الجم.. وهو واحد من مواطن الأسوة فى حياته عليه الصلاة والسلام...

لكن اللافت للنظر هنا: أن الطمع فى جنة عرضها السموات والأرض لا يأتى على لسان الداعية من فراغ:

إنه يجىء فى أوانه.. وبعد أن استفرغ الداعية كل طاقته فى خدمة الدعوة فالدعوة الإسلامية رغم أنها منهج إلهى إلا أنها لا تتم إلا بجهد البشر: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٢]

وإذن . . فلابد من التضحية أولا . . ومن صور التضحية تغيير النفس من الداخل . . بتصحيح مسارها عبر الفضائل. ثم فطمها عن الرذائل . . عن طريق دوام ذكر الله تعالى واللجأ إليه. . . وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام . . عندما قدّم لغده . . فكانت الدعوة يومه . . وغده . .

البر فى أجلى صوره:

لكنه عليه الصلاة والسلام . . لا ينسى والده وإن كان عصيا . . مؤكدا قيمة البر التى يجب أن تكون . . ودائما . . دستور التعامل بين الآباء والأبناء . .

ولئن كان والد إبراهيم . . أغلظ له القول مع أنه مرتبط بولده . . غريزة . . فإن ذلك لم يحمل الولد على جفاء أبيه . . مع أنه يرتبط به عاطفة! . . وهو درس فى صلة الرحم يحمِّل الجيل الجديد مسئولية البر المبذول للوالد ـ والأم . . والمعلم . . وكل من له قدم صدق فى الخدمة العامة.

لقد كانت المسافة بين إبراهيم عليه السلام ووالده واسعة واسعة: فالولد: فى قمة الهداية . . والوالد فى قعر الضلال . . ومع ذلك لم يسقط حق الوالد فى البر . . خيطًا رفيعا لا ينبغى أن يقطع بحال . . وكأين من آية فى السماء والأرض نمر عليها . . تذكرنا أن نكون أبرارا . . إن الله تعالى خلق الشمس . . وها هى ذى ترسل أشعتها عبر الكون . . والتى تغمر البَرّ والفاجر . . إنها رسول من الله تعالى متجدد . . يذكر الإنسان بمعنى العطاء . . . بلا منٍّ . . وبلا حدود . . ومع كل إنسان . . ولن يتم ذلك كله إلا بقاعدته وهى: القلب السليم . .

إن المسلم الحق لا يطير إلى الجنة بالعمائر . . ولا بالمناصب . . ولا بالعشيرة ولكن بالقلب . . . والقلب السليم . . وذلك قوله تعالى على لسان الخليل: **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**

قلب سليم: من الشرك . . والشقاق والنفاق . . لا يعرف الأطماع . . ولا تعيش فيه الأحقاد . . . وبهذا القلب يواجه الداعية الدنيا . . ليكون أرحب من الدنيا . . . وإذا كان للعقل دوره فى مجال الدعوة . . فلكى تتم كلمة ربك صدقا وعدلا. لابد من القلب.

إن مجرد المعرفة ـ كما يقول العلماء ـ معرفة الإقرار بوجود الله تعالى يشترك فيها كل الخلائق . . أما المعرفة الحق فهى التى توجب الخشية . . والحياء . .

والوجل .. ومُستقر ذلك كله: القلب.

ومن هنا كانت بداية رحلة الداعية: بقلب سليم ... نفرِّغه من حب الباطل والاشتغال به .. وإلا .. فمحبة الباطل مانعة من اعتقاد الحق ومحبته.

وإذن فالخطوة الأولى على الطريق الطويل: تفريغ القلب من كل ما يضاد الحق أولا .. كما أن اللسان وبقية الجوارح لا تستقيم إلا إذا أُفْرِغَت أولا من الاشتغال بالباطل.

ولا يعنى ذلك أن يدير الداعية ظهره للدنيا .. فلا بأس أن يكون لك مال وبنون. شريطة أن تجعل للفقراء فى مالك نصيبا مفروضا .. وأن يرصد ولدك ليكون سندا للحق... وإذا كان مهما أن يكون لك قلب .. لتعيش .. فأهم من ذلك أن يكون سليما... وإذا سلمت قاعدة الانطلاق .. سلم العمل .. وإذا فسدت .. فسدت الحياة كلها..

وهكذا تبدو خصائص الداعية فى إبراهيم عليه السلام:

أ ـ مارس وظيفة الدعوة ناصحا أمينا.

ب ـ التجأ إلى الله مد لهم الخطوب ورَجَعَ كل حول وطول إليه سبحانه.

جـ ـ نزعة الخير الرامية إلى بعيد .. رجاء أن تبقى كلمة التوحيد.

د ـ قلب موصول العطاء .. مفتوح على الدنيا..

هـ ـ آمال تتخطى حواجز الدنيا .. لتتعلق بالفردوس الأعلى.

ألا إنها الأسوة الحسنة فى إبراهيم والذين معه .. فمن شاء اتخذ إليها سبيلا

*****

رجل واحد يتحدى أمة

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ الآيات من سورة الأنبياء: ٥١، ٥٢].

تمهيد

فطن علم النفس أخيرا فأدرك أن معايشة الداعى لقومه تتيح له خبرة أعمق بأحوالهم . . وبالتالى تمكنه من التأثير فيهم. . .وقد سمَّى ذلك «الخبرة».

(فالخبرة لَهَا دَوْرُهَا الفعال فى التأثير على الجماهير. وكذلك «الاستدلال الذى يعتبر مصدرا من مصادر الكشف عن الحقيقة والقوانين التى يستفيد منها الداعى فى الإقناع وسرد الحجج التى تَدْحض خصومه.

فالكون فيه من العجائب والنعم ما لا يحصى . . . وكلّ يدل على وحدانية الخالق سبحانه وكذلك «التجريب» وهو أكثر الطرق الموصلة للبحث بدقة. . . تلك الطريقة التى استدل بها نبى الله إبراهيم عليه السلام .ولإبطال حجة عَبَدة الكواكب.

فالظواهر الاجتماعية تحتاج من الداعية إلى تحليل عواملها المختلفة المتداخلة. . . وتلك الطرق الثلاثة «الخبرة و «الاستدلال» و «التجريب» لابد منها ولا يمكن أن يقلل الداعى من أهمية إحداها. . .بل علينا أن ندرك أن بعضها متداخل مع بعض) ا.هـ.

الرشد المبكر

ولقد استخدم إبراهيم عليه السلام كل هذه الوسائل . . التى أصلها بما حكاه القرآن الكريم عنه . . ثم جاء علم النفس الحديث فنسج على منواله بما قعّد من قواعد. . .وكان أسلوبه فى الدعوة إلى الله تعالى تعبيرا عن هذا الرشد المبكر . . والذى منحه اقتدارا على إصلاح الأمة . والأخذ بيدها على طريق الفلاح:

لقد كان أسوة حسنة . . فأحسن بالقدوة الطيبة إلى الدعوة التى تمثل الداعى حقائقها. . .ثم واجه قومه بما فيهم أبوه الذى استخفهم فأطاعوه ـ . . فلم يبْق

للقوم عذر فى التَّمَحُّل أو التردد .. بعدما صار الداعى صورة للدعوة تتحرك بينهم وبعد ما أبلغهم رسالة ربه ليكشف حجب الغفلة عن قولهم. .وذلك قوله تعالى: **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين.إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون﴾**؟

معنى إيتاء الرشد

والإيتاء ـ كما يشير فقه اللغة ـ إعطاء بيسر .. وسهولة ..إنه منحة .. لا تصطدم بجدار .. وإنما يتلقاها قلب ودود .. مقبل عليها بحفاوة بالغة . تماما كما تتفتح البراعم فى مساقط المطر ليكون من بعد الثمر.

ولقد علم الله تعالى بما كان عليه الخليل من «ذكاء» .. و«زكاء» فمنحة ذلك الرشد مبكرا ..ثم هو «رشده» المضاف إليه .. والذى تفرد به حين رأى من الكون مساحة أكبر من قومه .. ثم غاص بفكره أعمق منهم .. فى صحبة ضمير أشدَّ حساسية من ضمائرهم مجتمعة ..

وهكذا يجب أن يكون لسان الأمة المعبر عن آلامها وآمالها .. وإن شئت فقل: هكذا الداعية .. ودائما.

[من مظاهر الرشد]

وأولى مظاهر رشده عليه الصلاة والسلام أن بدأ دعوته بنفسه.. ثم بخاصته من أهله .. فوضع بذلك قاعدةً هى:

ضرورة مراعاة سلم الأولويات .. بادئا بالأهم .. فالمهم ..

إن أهل الإنسان وقومه هم الموكلون بمهام أموره .. وهم أمارة عليه.. وبابه الذى يغلب منه عدوه . دون بقية الناس...تقويةُ ضعيفهم؛ قوة لك .. وبمساعدة فقيرهم؛ يشتد ساعدك.. وقد جرى ذلك المعنى على لسان الشعراء فكان مما قالوا:

وما من شيمتى: شتم ابن عمى　　　وما أنا مخلف من يرتجينى

ولماذا كان هذا الخُلُقُ؟

لأن ابن عم المرء ـ فاعلم ـ جناحه ـ وهل ينهض البازى بغير جناح؟

ولسائل أن يسأل .. وأين مظاهر الرشد فى مواجهة الداعية أباه مع قومه؟

والجواب:

أولا: من معانى ذلك الموقف: أن إبراهيم عليه السلام يحب أباه . ويحب قومه. ولكن الحق أعز عليه من أبيه . وفضيلته التى تؤويه.

وثانيا: تنحية مشاعر الشفقة التى قد تعقد اللسان فلا ينطلق بالكلمة الصادعة رفقا بالقوارير من قومه. .وهو موطن من مواطن الأسوة فى حياة الخليل عليه السلام . . وقد أشار القرآن الكريم إليه فى قوله تعالى حكاية عنه: ﴿.. **قال ومن ذريتى** ..﴾ أى الجدير بذلك.

فلم يقل عليه السلام ـ كما أشار المفسرون ـ [وذريتى . .] أى أنه لم ينطلق فى دعائه من غريزة الأبوة . وإنما دعا بما ينسجم مع الحق وهو أن يكون إماما . . من هو جدير بالإمامة فعلا . . وهو نفسه المعنى الملحوظ فى قوله تعالى ومخاطبا رسوله ﷺ: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ .

فقد برز معنى الإنذار وحده . . تنحية للعواطف . ليبقى الولاء للحق وحده.

وثالثا: أن الرضوخ لسياسة الأمر الواقع ليس من خلق الدعاة؛

فإذا ضجت البيئة حولهم بالوثنية . . فهم المتمردون على هذه البيئة تشبثا بعقيدة التوحيد ـ وإنما سلطان البيئة على الذين أغواهم الشيطان. . .لقد ذكروا أن أوّل من يعطى كتابه بيمينه: أبو سلمة بنُ عبد الأسد وأن أول من يعطى كتابه بشماله أخوه سليمان. .

فانظر كيف نشأ كلاهما فى نفس البيئة . . ولأم . . وأب . . واحد . . ومع ذلك فقد كان بعدُ المشرقين . . بين الأخوين.

ورابعا: مع بعد المشقة بين الداعية وأبيه وقومه إلا أنه ما زال أباه . . ومازالوا قومه . . ولا ينقطع الخيط أبدا. .

وهى لفتة موحية تؤكد كم يكون موقف الداعية رفيقا رقيقا . . مع أبيه! مسلما . . ثم مع مجتمعه المسلم. . ومن الطبيعى أن يكون حقهم فى الرفق أولى وأجدى.

لقد كان المسلم يرى من أخيه شيئا: فيأمره فى ستْر وينهاه فى ستر. . . فيؤجر

فى ستره، ويؤجر فى أمره ، ويؤجر فى نهيه.

ويغضى عن العوراء إغضاء قادر ويرجح فى الحلم الجبال الرواسيا

وقد نغضب أحيانا . . ولكن: تحت إشراف العقل . . وفى الوقت المناسب . . وبالقدر المناسب أيضا . .

ومهما يكن من أمر . . فإن المسافة بين الداعى وبين المسلم العاصى ليست كتلك المسافة بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه . . ومع هذا فقد احتفظ لهم بحقهم فى الحلم . . والرفق . .

إن المسلم حين يُدعى . . ليس عدوا . . وإنما هو فقط «خصم» وله حق التسامح . . وإذ يضيق الصدر أحيانا فيتسع اللسان بالقول . . فإن الداعية أرحب صدرا . . وبالتالى أعفِ لسانا . . وأحكم بيانا.

وقد أعلن القرآن الكريم عن هذه الحكمة فى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: **﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون﴾**.

لقد سألهم من قبل قائلا: ما تعبدون؟ وكأنما نفى أن يكون هناك شيء بالمرة يعبدونه . . . ولكنه اليوم يترقى فى سلم الخطاب فيفترض أن هناك شيئا يعبد: **﴿ما هذه التماثيل..﴾**.

لقد كان السؤال مركزا . . نفاذا فى نفس الوقت . . بما كشف عن هوّة الضلال التى ترددوا فيها:

إنها تماثيل . . فهى خرساء . .

ومع ذلك: فأنتم: ملازمون لها . . لها بالذات . . متفرغون لتقديسها . . لا وقت عندكم لغيرها . . وتقدّسونها . . أنتم . . جميعا . . وليس فيكم رجل رشيد . . واحد فقط . . يمنعكم من هذا الانهيار . . تعجبتُ . . حتى كدت لا أتعجب!!

فماذا قال القوم عندئذ؟

ذلك ما سوف نوضحه فى الحلقة القادمة إن شاء الله.

*****

وصمة التقليد

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ..﴾ [الأنبياء: ٥٣].

هل الدعوة فى حس الداعى مهنة . . أم هى بالدرجة الأولى حياة؟

ليست الدعوة مهنة يستهدف بها الداعى لنفسه مالاً أو جاها. . ولو كانت كذلك لشغل نفسه بهذه الغايات القريبة . . ولم يُعطِ الدعوة كل ما يملك. ولكنها فى الواقع حياته . . التى يباشرها . . لا كصياد يحمل قوسه من أجل صيد يُسكت فى أعماقه الإحساس بالجوع . . وإنما هو يدعو . . مستمتعا بهذا العمل. . وإن لم يحقق لذاته نفعا. .

وهو على أى حال راض عن نفسه ما دام يبذل جهده ـ وأمره فى النهاية على ما يقول الشاعر:

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى   وإلا . . فقد عشنا بها زمنا رغدا

ولقد كان إبراهيم عليه السلام ذلك الداعية الحق: لقد عرف الحق . . ومن عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما. . وقد كان من الممكن أن يكسب رضاء قومه لو أنه آثر السلامة . . فسكت . . لكنه صدع بالأمر . . راضيا . . سعيدا . . بما يلاقى من عناء . . ذلك بأنه على الحق المبين. . ومن ثم . . فهو على ثقة بعدالة قضيته . . حين يكون عدوا للشرك. . وما يترتب على ذلك من عمل على مقتضى ذلك الحق . . متصديا لحملات التشكيك والمهاترة . . متحملا مسئولية البلاغ.

*****

حجة داحضة

لم يكن لدى القوم جواب شاف. . فأحالوا القضية إلى الآباء الذين قلدوهم فيما كانوا عليه من ضلال.

وقد دل جواب القوم على ما يأتى:

أ ـ إن للتقاليد الموروثة ضغطها. وكيف تشكل عقبة كؤودا فى طريق الدعوة.

يقول شيوخنا: (إن الناس تحكمهم تقاليد شديدة ويتوارثون أفكارا تحتاج نقدها وزنها إلى زمان غير قصير. . بل إن الأهواء التى تصرف البشر لها سلطان محيط. والخلاص منها لايتم بين عشية وضحاها.

وقد تأملت فى ماضى «خالد بن الوليد» عبقرى الحروب الملهم وماضى «عمرو بن العاص» السياسى الداهية. . . فوجدت كلا الرجلين لم ينشرح صدره للإسلام إلا بعد ما يقارب العشرين سنة.

ومن رحمة الله وحكمته أن منحهما هذه الفرصة وهما مَثَل لغيرهم من سائر الخلق).

ب ـ ودل جواب القوم كذلك على شدة الغباء الذى فرض عليهم التقليد الأعمى. . فلم يذكروا برهانا. . ولاسماعا. . ولا فائدة. . فماذا يبقى؟

ولقد كان هذا الغباء سببا فى قسوة جواب إبراهيم عليه السلام: على ما يقول الرازى:

(اعلم أن القوم لم يجدوا فى جوابه إلا طريقة التقليد. الذى يوجب مزيد النكير. . . لأنهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم. لم يعصمهم من هذا الخطأ أنّ آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق).

الجواب المقنع

لقد وصمهم الخليل عليه السلام بالضلال جميعا: الآباء والأبناء. . كاشفا فى نفس الوقت عن وجه الحق فى القضية:

فلو عبد آباؤهم هذه الأصنام منذ آلاف السنين. . . لم يكن القِدَمُ امراً واقعا

يفرض نفسه فرضا. . .إن المقياس الحقيقى لصلاح أمر ما. . حقيقته فى ذاته بغض النظر عن المفتونين به. . .والعاقل من يعرف الرجال بالحق. . لا الحق بالرجال.

الباطل يشغب:

ولايلقى الباطل سلاحه ويستسلم بسهولة. . ولكنه يحاول الشغب على الحق والسخرية منه في محاولة لعرقلة مساره. وهو بعض ما يفهم من قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾.

إنه استفهام تعجيب مما يقول. . .لقد استبعدوا احتمال مجيئه بالحق. . ثم ركزوا على: أنه من اللاعبين. . لأنهم لايُطيقون حتى تصور أنه على الحق. . .

ومن ثم أضربوا عنه، منتقلين إلى نسبته إلى اللعب. . . وهو الاحتمال الذى يصادف هوى فى نفوسهم. . . ثم جاءوا به جملة اسمية: أنت من اللاعبين. وهى تفيد الثبوت.

مغزى الجواب

كان المتوقع أن يجيبهم عليه السلام قائلا: بل أنا محق. . مثلا. لكنه عدل عنه إلى قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾

إنه يفتح عليهم بابا يطل بهم على عظمة المعبود الحقيقى سبحانه. . . تلك العظمة التى يشهد بها الكون من حولهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم. . وكأنما يقول لهم:إنكم تتركون الذى فطر الكون: سماءَهُ وأرضه. . من غير مثال يحتذيه. ولاقانون ينتحيه. . والذى نصب لكم من دلائل توحيده على كل طريق راية. . وفى كل منعطف شاهد. .

باختصار:تتركون المعبود الذى رباكم بنعمه. . ثم تعبدون مملوكه. . ويعنى ذلك: أنكم أتفه مما تعبدون!

حين لايجدى الكلام

وحين لايجدى البرهان مع تألقه. . فلابد من حركة يَنْقُل بها الضغط على عقول جامدة لاتتحرك إلا بما يشبه الصدمة الكهربائية لعلها تفيق. . . أى لابد من تحريك القضية. .وبعثها من رقادها. . .وكان ذلك قرار الخليل عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

إن الشطارة فى الحوار قد تملى للمضل فيحسب أنه على شىء. . .وقد تخدع الجماهير المغلوبة بخطباء الفتنة الذين يجيدون صناعة الكلام. . أما عندما يسقط الصنم حطاما. . فلعل العقول حيئذ أن تستسلم لواقع هو أعلى صوتا من كل مقال. . . وفى اللحظة التى يعلن فيها الحق عن نفسه من خلال المنطق الأخاذ. . والحركة المباركة. . بينما الباطل ينسحب مكللا بالعار: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ. أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الطور: ٤٢، ٤٣]

*****

الحق يتحدى

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ. قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٤ ـ ٥٧].

ليس كالشجرة الطيبة إلا الكلمةُ الطيبة. . .أرأيت إلى تلك الشجرة الخضراء. . تلوح لك من قريب: تسر الناظرين. وتشبع الآكلين. . تمتص الغبار. . وتنقى الجو من تلك السموم التى رمتنا بها المدينة الحديثة. . فضلا عن حمايتك من ثانى أكسيد الكربون. . إلى جانب الظل المديد. . يجد فيه الحران برد السكينة والقرار. . وكذلك الكلمة الطيبة. . تصدر عن قلب داعية ودود. . . يصوّب بها المصيب. . ويستغفر للمخطئ. . ثم يُحْسن الظن بالاثنين معا. .

ولكن. . ما ظنك بداعية كإبراهيم عليه السلام. . يواجه الوثنية المتحكمة؟ هل يبقى مكان للكلمة الهادئة فى مهب رياح هوج لاتُبقى ولاتذر؟ قد يفرض الحوار فى بعض مراحله لونا من الخشونة ليكون آخر الدواء الكى. .

ومرة أخرى لكن. . إذا قال إبراهيم لقومه: ﴿كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾. . هل خاشنهم؟ هل تخلت كلمة الداعية عن عنصر الطيبة فيها!

فلنحاول أولا أن نفهم أبعاد الخطاب هنا. .إنه يقول لهم: لقد. . فما أقوله لكم. . متحقق. . وبالتأكيد. . وهو: أن هذا الضلال مما تواصت به الأجيال ﴿أنتم وآباؤكم﴾.

فليس فيكم رجل رشيد. . يستطيع أن يقول: لا. . . لهذه الوثنية الباغية. . ثم إنكم من الضلال فى قعره البعيد ﴿فى ضلال..﴾ ثم إنه ضلال. . مُنكَّر. . لتذهب النفس فيه كل مذهب. . ويعجز الخيال عن ملاحقته. . ومع هذا كله: فهو ضلال لايحتاج إلى برهان. . فهو يعلن عن نفسه كما يفهم من قوله تعالى ﴿فى ضلال مبين﴾.

وإنك لتدرك نسبة المرارة فى خطاب الداعية هنا. . ومع ذلك. . فلك أن تحكم مطمئنا بأن الكلمة لم تفقد حكمتها. . وهدوءها. . ذلك بأن الموقف للسيف. . ومن الظلم أن نضع الندى فى موضع السيف. . كما كان من الظلم وضعُ السيف فى موضع الندى. .

قارن أنت بين ما هم عليه من الشرك الذى عشش فى أدمغتهم. والذى يقود خطاهم إلى الجحيم. . لتدرك أن الكلمة هنا على ما فيها من مرارة. . إنما هى رزق يسوقه الله تعالى إليهم على لسان الداعية . . لعلهم يهتدون.

ثم تَذكَّر حكمة الأولين القائلة: من أبكانى . . ثم بكى على . . أفضل ممن أضحكنى . . ثم ضحك علىّ! ثم إنها من ناحية أخرى: نفثه مصدور . . يجد نفسه فى موقف قيل فى مثله: أريد حياته . . ويريد قتلى. .

وتصور ذلك الحس الغليظ لدى القوم . . الذين رأوا الحق لائحا . . واضحا. . ثم هاهم أولاء ينكرون الشمس فى رائعة النهار ليقولوا كما جاءت به الآيات:

﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾

اللاعبون . . . العابثون . . يرمون المحق . . الجاد . . يرمونه بدائهم ثم يهرُبون.

مَنْ للداعية ـ أحيانا على الأقل ـ من له بأعصاب من حديد ـ وهو من تمشت عقيدة التوحيد فى دماه ـ ليرى بعينه . . ويسمع بأذنه الشرك يستعلن . . ويتحدى مغرورا مزهوا ـ مستهترا . . ثم لا تفور دماؤه بمثل هذا الخطاب. . الذى يجىء فى أوانه؟ . . .

على أن ما يبدُو للوهلة من قسوةٍ قد فُرِضَ على إبراهيم عليه السلام. . .

لقد فرض عليه عناد القوم أن يتخذ الأسنة مركبا:

إذا لـــم تكـــن إلا الأسنة مركــبا   فمــا حــيلة المضطــر إلا ركوبها

ثم.

والناس إن تركوا البرهان واعتسفوا   فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

وأيضا

لئن كنتُ محتاجا إلى الحلم إننى	إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحبا	ولكننى أرضى به حين أُحرج
فإنْ قال قوم إنّ فيك سماجةً	فقد صَدَقوا . والذُّل بالحُرِّ أسمج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجَم	ولى فرس للجهل بالجهل أسمج
فمن شاء تقويمى فإنى مقوَّم	ومن شاء تعويجى فإنى معوج

[مفتاح الموقف الصعب]

وعلى أى حال . . فقد قرر إبراهيم عليه السلام أن يطوّر أسلحته فى مواجهة الوثنية بالكيد لأصنامهم ولقد كان قرار إبراهيم عليه السلام باهظ التكاليف . .

وهذا بعض ما يشير إليه القسم بلفظ الجلالة مقرونا بالتاء. وتا الله . . »

وفيه تعجب مفاده:

كيف يقدر على تنفيذ مهمة التحطيم . . أىْ ضَرْبِ النظام الوثنى فى أساسه فى عهد الجبار «نمرود» بالذات؟ عن طريق تحطيم رموزه وهى: الأصنام؟؟

إن المهمة إذن عظيمة. . . فلتكن لها الوسيلة التى تكافئها.

أ ـ لقد أقسم بلفظ الجلالة استمدادا من حوله تعالى وطوله سبحانه وحُداء للنفس التى تنطلق واثقة بالنصر.

ب ـ لم يواجه الخطر على المكشوف وإنما قرر أن يكيد . . ويحتال. . ويُدبِّر بليل . . ومن حيث لا يشعرون.

جـ ـ ولقد نفذ مهمته بخروج القوم إلى العيد . . وبعد أن خلا المكان ـ فرارا من فتنة المواجهة التى قد تودى به هو . . ويبقى الصنم من بعده شاخصا.

د ـ ومن شأن الخطة المحكمة أن تعين على تحقيق الهدف بنجاح . . وهاهو ذا عليه السلام ساعة الصفر . . . يضرب . . . ويضرب بقوة . . قوة الواثق المطمئن. . فلا ترتعش منه اليدان . . وإنما كانت القاضية التى خلفت الصنم رمادا. !

لماذا لم يحطم الكبير؟

بقى الكبير وحده شاخصا كَخَيال المآته! فلماذا أبْقَى عليه؟ لقد أبقى على الكبير . . . حتى إذا عادوا وشاهدوا آثار الدمار بينما هو صامت . . لم تَبق هناك ثقة إطلاقا فى صغير ولا كبير من الأصنام . . وإذن فقد ألزمهم الداعية كلمة الحق. . حين جعل المشهد يتكلم بلسان الحال على نحو لا يفى به لسان المقال.

ومن الناحية النفسية. فإن القوم العائدين سوف يغضبون من المشهد المرير . . ومن الطبيعى أن تتجه شحنة الغضب إلى من كسر الصنم ابتداء . . ولكن الشحنة سوف تُغير اتجاها لتَنصَبَّ على الصنم القائم. . كيف يظل جامدا بينما زملاؤه يسقطون؟!

ولقد كان المتوقع أن يسألوه: لماذا لم تدافع؟ . . ولكنهم قالوا: **﴿من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾**

لقد آثروا أن يسلكوا هكذا.

أ - زجرا لمن يتجرأ بعد ذلك.

ب - وإشهادا على إبراهيم علانية.

جـ - ثم دفاعا عن الكرامة الضائعة.

وتأمل كيف يحكمون على الفاعل بالظلم . . والظلم المؤكَّد بإنّ . . واللام واسمية الجملة.

ألا إن المبالغة فى التوكيد تعكس نفوسا حائرة مفلسة من دلائل الحق فتدق الطبل الاجوف دعاية كاذبة. . .لعلها تشوش على الحق المبين.

[ملامح الفتوة]

وجاء الجواب: **﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾**.

ومعنى الفتوة هنا . الحيوية والنضج . . يختص الله تعالى بها أصحاب المواقف الحاسمة فى الجهر بالحق. . ونصرته . والتمسك به . والثبات عليه . إلى جانب ما يملكون من بصيرة كاشفة عن مواطن العلة . . وأفضلِ السبل للتخلص منها. . ومن معانى الفتوة: نظافةُ القلب من شهوة انتقام تهدم ولا تبنى. .

لقد هدم إبراهيم عليه السلام الأصنام . . لماذا؟ لم يكن ذلك الهجوم إطفاءً لغيظ مكتوم . . ولا تعبيرا عن هوى هجّام . . ولكن: ﴿لعلهم يرجعون﴾ . . إنه يفتح بالكلمة وبالموقف طريق العودة إلى الحق . . ودائما . . وتلك غاية المراد من رب العباد . . إن إيمان الكافر . . وتوبة العاصى على يدىّ . . كسب للدعوة . . تتسع به مساحة الود الجامع على كلمة سواء . . فلماذا نغلق الباب؟ . . وفى يدنا المفتاح . .

ومن وراء ذلك كله عقل الداعية الرحب . . الذى يرخى الحبل للباطل . . فيجاريه حين يفترض وجود الباطل جدلا . . وفى لحظة ما . . من أجل توريط الخصم الذى قد يحاصره البرهان فيعود إلى الحق مختارا . . فإن عاد . . فهذه غايتنا . . وإن عاند . . فلن يضيرنا . . وأمرنا معه على ما قيل:

وهبنى قلت هذا الصبح ليل   أيعمى العالمون عن الضياء.

[الباطل .. فى الموقف الحرج]

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ الآيات [الأبياء: ٦١-٦٣]

ما تزال صورة إبراهيم عليه السلام تسبح فى خواطرنا بكل ما تحمل من معانى الحيوية . . والثبات على الحق فى مواجهة الوثنية . . وفى سناها نبصر مرامى الحكمة القائلة: لا يهمنا أن نعرف عن الداعية . . كيف يعيش؟ وأهم منه أن نقول: لمن يعيش؟ لنفسه . . أم لمبدئه؟

وتلك هى زاوية الجدار . . فى شخصية الداعية الراغب فى تحقيق أهداف الدعوة العليا . .

لقد عاش عليه الصلاة والسلام لمبدئه . . فكان به أسوة حسنة . . ولكن ما أكثر الذين يعيشون لمبادئهم فى دنيا الناس: صادقين . . أو . . واهمين . . وأهم من ذلك: ما هو منهجه فى تغيير الواقع إلى الأفضل؟ لقد انطلق الخليل عليه السلام فى دعوته من قاعدة شرعية: فهو مأذون له فيها . . بعد ما استحق بملكاته أن يكون من روادها . . ولا يكفى أن تستوعب الحكم الشرعى . . نظريا . . دون

أن تتأهل لتطبيقه عمليا. . وهل يكفى أن يحذِق إنسان مّا قواعد الطب . . ليصير بها طبيبا؟

إن الداعية . . المنطلق من قاعدة شرعية لابد له أن يتأمل طبيعة المعركة . . واتجاهات المدعويين. . وعليه أن يسأل نفسه:

ما هى الأسباب المؤثرة على ساحة الدعوة؟

لابد من دراسة هذا الواقع . . تشخيصا لعلله . . ثم وصف الدواء بعد ذلك. . . مُدخِلاً فى حسابه توقعات المستقبل . . وما يترتب على دعوته من آثار. . تزين له الاسترسال . . أو التوقف . . وإلى حين.

وقد يملك الداعية صلاحية التغيير . . وقد ينكشف له الواقع بكل ما فيه ومن فيه . . ويبقى وجدانه هو . . والذى سيضع به اللمسات الأخيرة فى منهجه ليؤتى أكله رُطَبًا جنيا. . . وقد يكون مزاج الداعية حادا . . ثائرا . وإذن فسوف يغبِّش الانفعالُ الجو من حوله . . فلا يرى تفاصيل الموقف. .

وإذن فلابد من وجدان منضبط على مصلحة الدعوة . . حتى لا ينفلت . . فتتفلت فرص النجاح من بين يديه . . ثم لا تعود. . ولقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك الداعية الناجح. . والذى تم له النجاح حين استجمع كل مقوماته . . فحقق بذلك ما كان يرجوه من هزيمة القوم . . على الأقل فى نظر أنفسهم. . ويكفى أن يشعر المهزوم أنه . . أضعف من الداعى . . لتنتقل نفسه هو كقوة تضاف إلى رصيد الداعية القوى بإيمانه . . وبرهانه . . وهذا ما حدث بالفعل. . . لقد عقدوا له محاكمة صورية . . وعلنية . . توهم الناس أنها عادلة لا تحكمُ إلا بعد التحقيق . . تأكيدًا لمبدأ التحرى قبل الاتهام. . . ولكن ـ لأن الظلم من ظلمة النفوس ـ فقد كان من عقابه المعجل أن يعترف الظالم نفسه . . وعلى الملأ بأنه ظالم . . وذلك قوله تعالى: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ . .

وهكذا: يصبح المبطل نفسه من جنود الحق . . حين أَنْطَقَه الله الذى أنطق كل شىء . . فلما اكتشفوا أنهم ـ راغمين يعملون لحساب عدوهم ـ قرروا . . تحريقه. . وإنك لتشم فى بناء الكلمة رائحة الغيظ الفوار يكشف عنه المنطق الغشوم! حرقوه!!

ثم نحاول أن نُعيد النظر فى المشهد تارة أخرى . . فماذا نرى؟

لم تكن نسبة الفعل إلى كبيرهم تنصلا من المسؤولية . ولكنه التلميح المغنى عن التصريح . . وذلك مِثلُ أن يقول ردىء الخط لمن كتب شيئا جميلا: كما أشار علماؤنا:

أأنت كتبت هذا؟ فيقول صاحب الخط الجميل: بل أنت الذى كتبته.

يريد أن يستهزئ به استهزاء لا ينفى أنه هو الكاتب الأصلى . . بالإضافة إلى ما فى قوله تعالى: ﴿إن كانوا ينطقون﴾ من سخرية بهؤلاء الذين يراد لهم أن ينطقوا . . إن كانوا ينطقون . . وذلك مالا يكون.

وهكذا يبدو المقلد ضعيفا أبدا. . . إنه يُغمض عقله . . فلا يفكر. . فلما اذن لم يغمض عينيه حتى لا يرى. . .؟ولله تعالى حكمة هو بالغها: إنه ليملى للظالم. . حتى إذا أخذه لم يُفلته. .

ولقد كان الموقف بكل أبعاده كافيا فى الدلالة على ضلالهم وتفاهم أصنامهم. ولو تعقلوه لأعفَوْا أنفسهم من هذا الخزى وهذا العار . لكنهم لم يتعقلوه. . وبقى الموقف حيّا على مدار التاريخ . . تتراءى من خلاله تفاهة الباطل فى محاولاته المكرورة للتصدى للحق. . وَعْدًا للمتقين بالنصر . . ووعيدا للكافرين بالخذلان.

صحوة الموت:

ووسط مشاعر متضاربة من: الحزن والغضب . والقلق والهوان رجع القوم باللوم على أنفسهم فحكموا عليها بالظلم . . فكانت صحوة الموت.

أ ـ وفى هذا يقول «إقبال» محرضا على قوة الأمل فى انتصار الحق . . وإن غاب طويلا

بُغِـــتَ التتـارُ فأدركتهـــا ... من الإيمان عـاقبة الأمـــان

وأصبح عـابدو الأصنـــام قِدما ... حماة الحِجْـــر والركن اليمانى

فلا تجـزع فهذا العصــــر ليل ... وأنت النجـم تشرق كل آن

ولاتخش العواصف فيه وانهض ... بشعلتك المضيئة فى الزمـــان

ب ـ وينتهزها الحق فرصة فيضرب ضربته المواتية وهاهو ذا يعلن إفلاسهم وتفاهتهم فى نفس الوقت؛ وذلك قوله تعالى:

﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾.

وهى ومضة من ومضات الفطرة المهيأة أساسا لتلقى الحق والانفعال به تؤكد للدعاة أن عنصر الخير باق أبدا فى كيان الإنسان مهما كان حظه من العدوان مادام فى رأسه عقل صالحٌ للتفكير .. فلنترقب هذه اللحظة فربما حَسَمت الموقف لصالح الحق .. بمعنى أنه لا يأس أبدا . ومهما طال ليل الوثنية .. فإن الفجر قادم.

بيد أن الصحوة كانت فى حياة هؤلاء المعاندين لحظة طارئة عادوا بعدها إلى ضلالهم القديم: **﴿ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾**

وإذا كانوا معترفين بأن أصنامهم لا تنطق .. وإبراهيم يعلم لذلك .. فلماذا الاسترسال فى الجدال؟

المنطق الغشوم

وحين يفلس الباطل . ويتضح عواره . ويفتضح أمره أمام الجماهير المخدوعة به فإن وجوده يُؤذن بالزوال...

وفى محاولة أخيرة يهدد بالعذاب...

ولكن الحق تعالى يخرق السنن الكونية لعباده .. وخذلانا لأعدائه... وبينما ينحسر الباطل مهزوما بكل ما يملك من عتاد .. فإن الحق تعلو راياته .. وتَخْرج الذرية الصالحة حاملة رسالة التوحيد. ناشرة ضياء الحق فى العالمين.

ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٣].

ولأنهم أئمة يهدون . . : بالكلمة التى كانت على لسانهم ضياء . . وبالفعل الذى لاح منهم قدوة . . لأنهم كذلك . . فقد خَرق الله تعالى من أجلهم السنن الكونية . . التى وقفت إلى جانبهم . . حين بردت النار فكانت على إبراهيم سلاما . .

وما تزال رحمة الله بأمته سابغة . . وهو سبحانه وتعالى قادر على أن يخرق السنن التى هى من خلقه سبحانه . . ما دمنا على شرعه القويم . .

وقد نواجه فى الطريق صعابا . . وقد يُغرقنا أعداؤنا بمزيد من الادعاء . . والافتراء كإخوة لهم فى الضلال من قبل . لكن نصر الله قريب . . قريب من المحسنين . .

بقدر ما كانت نقمته . . وكان مكره تعالى مُحبِطا كيد الكائدين . .

فلنواصل المسير . . على طريق الشرع . . ولن يضيرنا مكر الثعالب مهما دبروا بليل . ولئن عيّر الثعلب الأسد يوما لأنه وقع فى حفرة حفرها له . .

فلن يغير ذلك من الواقع شيئا . . وسيبقى الثعلب . . ثعلبا . . والأسد . . أسدا!

*****

من أساليب الدعوة

فى حلقة سابقة .. ذكرنا كيف احتال إبراهيم عليه السلام .. حين قرر تحطيم الأصنام .. فراغ .. إلى الأصنام .. أو كادها فكان ذلك درسا فى اتخاذ الحيلة - أحيانا - وسيلة من وسائل الدعوة - وهو درس يحتاج إلى شىء من التفصيل .. فنقول:

بعض الناس قد ينظرون إلى ما حولهم .. ومن حولهم . بعقول كليلة .. وأبصار عليلة .. ومن ثم .. يعبر الحياة كالضيف .. أو سحابة الصيف .. فلا يكون غَدهُ إلا تكرار أمسه . ولا يزيد.

وبعضهم يتأمل ما حوله بسرعة واندفاع .. بلا تبصر.. وهؤلاء يفقدونِ فى هجمة الاندفاع بسرعة .. ما أخذوه . أيضا بسرعة!

ولكن الداعية له مع البيئة التى جاء لإصلاحها شأن آخر:

[فليس هو الذى يُسبر الأعماق بطريقة خاطفة . وبمجهود خارق سريع متواصل..ولكنه يحفر طبقة .. وراء طبقة .. أعمق فأعمق. إلى أن يصل إلى القاع البعيد].

إن له من نعم الله تعالى بصرا وبصيرة: ومن ثم .. يدخل إلى ساحة الدعوة ومعه مفتاح الشخصية.. شخصية الفرد .. وشخصية المجتمع..

وعليه .. وفى الوقت المناسب .. وبالقدر المناسب أيضا .. أن يدير المفتاح فى محاولة لمعرفة ما يدور فى العقول من أفكار...وما يعتمل فى النفوس من نوازع .. وما يموج به المجتمع من أحداث..

ولن يتم له ذلك إلا إذا دخل ساحة الدعوة بشخصية متراحبة المواهب.. قادرة على التكيف مع المواقف الحرجة .. بما يناسبها من تدبير .. فإن كان المقام للكلمة .. قالها .. ومضى .. فإن عجز .. لم تُعيه الحيلة سبيلا إلى الخلاص.. يُعينه على ذلك:

أن يكون ذكيا .. وهذه ناحية عقلية

وأن يكون زكيا .. وهذه ناحية خلقية

ولا بأس أن يكون خفيف الظل حاضر الدعابة . . وتلك ناحية اجتماعية . . وبمجموع هذه المواهب . . يواجه المواقف العصبية . . بالحيلة . . لا بالعنف . .

الدعوة بين القوة.. والحيلة:

ولقد كانت الحيلة مقدَّمة على الشدة حتى فى منطق القواد العسكريين حتى قالوا: الرجل النجد[1] إذا اجتهد قتل عشرة . . والمدبِّر بحيلته يُهلك العسكر بأسره . . وإذا كانوا يقولون ذلك بل ويفعلونه . . فهو أليق بالداعية . . لا سيما إذا لم تكن القوى متعادلة . .

وعلى هذا الأساس مضى الفكر الإنسانى يقرر ما للحيلة من أثر فعال:

قالوا: [إن الحيلة أبلغ من القوة . . وهى خاصة الإنسان: لأن الله تعالى إنما فضله بالعقل . وخصه بالتمييز. إبانةً له عن سائر الحيوان المباشرة بالأبدان: من البهائم الراعية . والسباع الضارية][2].

وقد قال النبى ﷺ:

«الحرب خدعة»[3].

وفى تفضيل الحيلة على المباشرة كتب أرسطاسطاليس إلى الإسكندر:

[لا تطلب الغَلَبَة بالمباشرة ، ولكن بالمكايدة ، استعمل المكايدة، فإن فتوحها أهنأ الفتوح وأسلمها].

وفى بيان أثرها الفعال يقولون:

(ضَرْعة اللّين بالمكر والحيلة أبلغ من صرعة الشده بالمكابرة؛ كالماء بلينه وبرده يتغلغل إلى عروق الشجر. فيستأصلها. والنار بحِدَّتها وحرِّها لا تحرق إلا ما فوق الأرض).

ومعنى هذا: أن النار لا تزيد بحِدَّتها وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها . والماء بلينه وبرده يستأصل ما تحت الأرض منها .

ومن بين ما أهداه ملك الروم إلى هارون الرشيد سيف مكتوب عليه:

أيها المقاتل: احتَلْ تغنم . . ولا تفكر فى العاقبة فتهزم.

---

(١) والنجد: الذى يمضى فيما لا يستطيعه سواه.
(٢) نصيحة الملوك للماوردى/ ٤٩٦.
(٣) رواه البخارى فى الصحيح ٤/ ٧٧

وهكذا كان الحذر من الحيلة شرعة الرجل الشديد . . فكان ذلك من أسباب نصره على عدوه وهو ما أوصى به أحد الحكماء أميرا قائلا:

اجعل تأنِّيك أمام عجلتك. .وحلمك رسول شدتك. .وعفوك مالك قدرتك. . وأنا ضامن لك قلوب رعيتك.

وقد أفصح العلماء عن سر فعالية الحيلة وبركة آثارها: فقالوا:

ينبغى للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيله. .فإن النفقة فى كل شىء هى من الأموال . والنفقة فى الحروب إنما هى من الأنفس. .وتفرض الحكمة حَقْنَ دماء الأمة . . حتى لا يكون حطبا لنار الحرب. .أما ما ننفقه دونها من مال . . فأمره ميسور مقدور عليه.

وقد حفل التاريخ الإسلامى بمواقف كان للحيلة ومن ورائها الذكاء المفرط . . آثارُها فى تحقيق الهدف . . بلا صدام.

كان الخليل أحمد مثاليا: يحترم العلماء . . بل ويعتبرهم أولياء. .وفى نفس الوقت كان عميق الشفقة على تلاميذه . . وبخاصة المشاكسين. .ومنهم ذلك التلميذ الذى حاول أن يكون عروضيا ،، يجيد فن العروض. .منتهزا كل فرصة لإثبات ذلك . . والخليل رحمه الله ـ وهو أستاذ المادة ـ يحاول أن يكفكف من غرُوره . . وأن يحوّله إلى ما يحسنه من فنون العلم. .

فاستدعاه يوما ،وقال له: قطِّع معى هذا البيت:

إذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع!

وفهم التلميذ الدرس . . واستأنف السير إلى ما يحسنه . . ونجح الأستاذ . . ولكن بالحيلة فى صرفه إلى التى هى أقوم.

ولقد أراد أحد القواد العسكريين أن يوهم أعداءه بأن لديه عددا وعُددا . .

ولكنه فى الواقع لم يكن له إلا ألف من الجنود . . وهو عدد لا ينشئ الرعب المطلوب فى قلوب أعدائه. . فلما حضر رسول أعدائه . . لجأ إلى الحيلة التى حقق بها ما يريد:

أجلس رسول أعدائه فى شُرفة قصره . . ثم أمر رجاله بما يلى:

أن يمر الألف على الساحة . . بلباس الطيران . . ثم، وفى سرِّية وسرعة . . يرتدون هم أنفسهم . . لباس البحرية . . ثم يمرون . . وهكذا حتى ظن رسول العدو أنهم ألوف . . وأغنت الحيلة . . التى تفادى الرئيس بها معاطب وبيلة.

إن الداعية مكلف بإبلاغ الدعوة. ولا يكفى توصيلها . . بل لابد من تأصيلها . .

ولا يكون ذلك إلا بما فى الحيلة من دقة الكيد . . ولطف التناول . . وإلا فلو لجأ إلى العنف . . فلن يُوَصِّل . . ولن يؤصل!

*** شواهد من السنة المطهرة**

ولقد كان إسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه . . فرصة بدا فيها ما للحيلة من أثر فعال:

فقد أراد الله تعالى أن يكشف مكر اليهود وزيفهم. . فهدى حَبْرًا منهم إلى الإسلام . . فجاء عبد الله بن سلام إليه ﷺ بحيلة تلخصت فى قوله: إن اليهود قوم بُهت يفترون على الله الكذب. . فاسألهم عن رأيهم فىّ قبل أن يعلموا بإسلامى. . وانتهى الموقف بمدحهم له . . ثم ذمهم له غاية الذم لما عرفوا أنه أسلم. . فكانت الحيلة أنجع وسيلة لإحراج الخصم . . وخروج الحق من ضباب الشكوك ناصعًا!.

ولقد أدى الذكاء الإسلامى والعربى دوره فى مواجهة المواقف باللطف:

فعندما شرّف ﷺ المدينة . . تدافع الصحابة بالمناكب . . إرادة أن يظفروا بشرف ضيافته . . كل فى بيته . .ودون هؤلاء جميعا . . انسرب أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه فحمل متاعه! فلما سأل عن متاعه وعلم أنه عند أبى أيوب قال: «الرجل مع متاعه»وحق لأبى أيوب بذكائه أن يفوز بضيافة الرسول فوزا عظيما!

ونذكر من رجال «هوازن» «بجادا» والذى قتل أسيرا مسلما . . بل ومثَّل به. . ولما أهدر ﷺ دمه . . وعلم أن «الشيماء» أخت الرسول ذاهبة إليه . . مشى من ورائها محتميا بها . . طالبا أن تشفع له . . فشفعت . . فشفِّعت رغم ضخامة جريمته. .

وعلى طريقه سار كعب بن زهير .. الذى أهدر ﷺ دمه .. فذهب إلى المدينة .. لكنه سأل عن أرق الناس قلبا .. وأقربهم من رسول الله ﷺ.. فلما قيل له: إنه أبو بكر .. مشى وراءه ملثما .. ثم وضع يده فى يده ﷺ .. فلما أعلن عن نفسه .. عفا عنه وهكذا يعرف الحكماء: كيف تؤكل الكتف .. فكان ما أرادوا...وأجدر بالداعية أن يتخذ من الحيلة ركوبا إلى تحقيق أمله محكوما بقيم الإسلام:

وشىء مهم يجب أن يفهمه الداعية وهو: تجنب آفة الذكاء..وآفة الذكاء: الغرور .. والكبر..

وهو مُعرَّض لهذه الآفة فى لحظات الانتصار التى قد يصل إلى حافته .. أو الدخول فى دائرته..وعندئذ .. لوحدث ذلك .. لن يتم له ما يريد:

فما دَخَلَ الكبر قلب رجل إلا نقص من عقله بمقداره .. والمفروض أن يظل الداعية محتفظا بعقله .. يدبر به المعركة السلمية .. وفى الوقت الذى يُطيح الغرور بصواب أعداء الإسلام .. يظل هو مستراد الأمل .. ورائد العمل.

*****

صراحة الداعية

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ الآيات [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٦].

أحيانا .. يحس الداعية بالغربة .. وفى بيته الذى يؤويه .. وعشيرته التى تحميه.. ثم يتلفت حوله: من بين يديه ومن خلفه .. ليرى نفسه وحيدا فى جزيرة صغيرة .. تحاصرها أمواج من الشرك صاخبة .. ولا شعاع هناك فى الأفق يبشر بطلوع فجر جديد...

ولقد أحس إبراهيم عليه السلام .. وهو رمز التوحيد .. بهذه الغربة وسط أمواج من الضلال .. بل كان إحساسه مضاعفا .. لأن رمز هذا الضلال كان أباه.. الذى فرض عليه بوثنيته معركة ما كان ينبغى أن تكون ..

وإنها لغربة موحشة حقا ..أن تجيئك القذيفة من منطقة الأمان .. وأن يكون غريمك .. أعز الناس عليك . وهى غربة وصفها ابن حبان البستى فقال:

وما غربة الإنسان من شقة النوى...ولكنها والله من عدم الشكل.وإنى غريب بين .. بُست .. وأهلها..وإن كان فيها موطنى وبها أهلى.

ولكن الخليل عليه السلام قرر أن يتجاوز هذا الإحساس .. ويواجه أباه بالحق.. كما قرر أيضا أن يكون خطا به أشد لهجة .. من ذى قبل.

لقد واجه القومَ من قبل ـ وفى سورة الأنبياء ..واجههم جملة .. فَطَوى ذكر أبيه حين قال هناك:

﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾

أما اليوم .. فإنه يُكِّز على أبيه .. وبصراحة: إنى أراك وقومك فى ضلال

مبين.

وقد يسأل سائل: وأين حق الأبوة .. وبخاصة من إبراهيم الأواه الحليم؟

ونقول:

أولا: إذا حَدَّثنا التاريخ أن أمة ذلت بعد عز . أو دولة سقطت بعد قوة .. فَتَبِعة ذلك الذل .. وهذا السقوط ملقاة على دعاة لا ينصحون .. ومن أجل ذلك .. كان لابد من النصيحة .. مهما كانت الظروف..

وثانيا: إذا وجد الداعية نفسه أمام حق الله تعالى فى العبودية .. وحق الوالد فى البر .. فإنه .. وبلا تردد يُسقِط حق الوالد إذا كان فيه تضييع حق الله تعالى..ثم .. إنه .. وفى غمرة طغيان الحضارة المادية .. تتداخل القيم .. ولا تتميز حدودها .. وتُسَلَّط الأضواء على القيادات الوثنية .. التى تحاول تنحية الموحدين ..لأنهم الخطر الذى يتهدد مستقبلهم .. وكان على الموحدين أن يكونوا عندئذ أعلى صوتا .. ولقد كان التركيز على إبراهيم عليه السلام:

ذلك .. بأن نوره الساطع .. يوجع العيون...وبرهانه القاطع .. يخرس الألسنة..وصوته زلزال .. يصك الآذان..

ومن هنا حاربوه .. لأنه يريد منهم الإقلاع عن دينهم فى اتخاذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله .. وكان لابد من خطاب شديد اللهجة .. من ذلك النوع الذى أشار إليه الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما   فليقس أحيانا على من يرحم.

فالقسوة واردة .. ولكن .. أحيانا ..

ثم إن المقصود بها الازدجار أو الاعتبار .. وليس الانتقام أو التشفى .. وهذا ما نلمحه فى خطابه عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾[الأنعام: ٧٤ وما بعدها].

﴿**أتتخذ..؟**﴾ وعلى قسوة الخطاب إلا أن الداعية لا يتخلى أبدا عن حكمته.. حكمته البادية فى منطقه البليغ:

لقد اختار أسلوب الاستفهام .. دون أسلوب الخبر:

وقد قال العلماء: إن أسلوب الاستفهام أبلغ من الإقناع من أسلوب الخبر . . لأن الخبر يحتمل الصدق والكذب . . أما الاستفهام . . فأنت تُلقى سؤالك . . واثقا أنه لا جواب عند المخاطب . . ولقد أثَرْتَ بالسؤال نفسه عليه . . نفسه التى تصرخ فيه: بأنك عاجز عن الجواب . . وعندئذ . . وإذا كان الخصم شخصية مسؤولة . . فإنك إن لم تكسبه فى صفك . . فقد نجحْت بإسكاته . أو على الأقل فى تحييده!! لا لك . . ولا عليك!

ثم إن المدعو حيال السؤال لا يحس بضغط من الداعى . . بقدر ما يشعر أنه شَريكٌ فى صنع القرار . . وعندئذ تتوفر فرصة للتفاهم . . بقدر ما يعبِّر الداعى بسؤاله الهادف . . عن روح الإسلام التى تدعو إلى العرض . . لا إلى الفرض:

إن الإسلام نعمة . . بل ونعمة عظمى . .ألا وإن النعم لا تفرض . . وإنما هى لمن يستحقها . . وإذن . . فلتتضافر جهودنا لنهيئ أجهزة الاستقبال فى قلوب أعتى الرجال . . لتنعم مثلنا بنعمة الإسلام. وتلك كانت خطة الخليل عليه السلام . . والتى يُفصح عنها نسق الآية الكريمة:

[أتتخذ . . أصناما . . آلهة]

إنك لا «تأخذ» هكذا بسهولة ويسر تطاوعك نفسك فيه . . ولكنك: تتخذ. . تفتعل . . تتكلف. .

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

أى أنك تسبح ضدّ التيار . . ضد نفسك المفطورة على الرغبة فى الحق . . فتتخذُ . . أمرا يعاكس هذه الفطرة . . ثم يكون هذا الأمر . . حجرا؟! . . صنما؟! وتعبده؟! من دون الله؟!!

والجماهير المخدوعة من ورائك تُردِّد صوت سيدها فتعفِّر جباهها التى خلقها الله سبحانه عالية . . تمرغها فى التراب؟!!

لو كان هذا الحجر ـ مثلا ـ زاوية فى جدار البيت . . لكان أمرا طبيعيا . .أما أن تتخذه إلها . . تمحنه ولاءك . . فذلك هو الضلال . . البعيد. .

الضلال الذى لم أقرأ عنه فى كتاب مسطور . . وإنما هو ماثل للعيان: مشاهَد منظور!

ويا له من منطق ـ لو كان الكافرون يسمعون . . إنها كلمة . . كما يقول صاحب الظلال:

[كلمة يقولها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه ـ وهو الأواه الحليم الرضيُّ الخلق. السمحُ . . اللين ـ كما تَرِدُ أوصافه فى القرآن الكريم. .ولكنها العقيدة هنا. .والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة . وفوق مشاعر السماحة والحلم. . وإبراهيم هو القدوة التى أمر الله المسلمين من نبيه أن يتأسَّوْا بها. والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالا] أ. هـ

ونقول: لَطَالَمَا تلطف إبراهيم عليه السلام بأبيه . . بلا جدوى . . وآخر الدواء الكى. .والكى هنا: ذلك الخطاب الشديد اللهجة. .

وقد يقول قائل: أما كانت تكفى الإشارة عن العبارة؟

ونجيب: فلنذكر أن إبراهيم عليه السلام مؤمن . . يخاطب وثنيا. .

ولما كان قدوة. . فللقدوة تكاليفها . . ومنها: تنحية مشاعره الذاتية . . حتى لا تكون طرفا فى نزاع يدور على محور الحق . . والحقُّ وحده. .

وإذا كان لكل مقام مقال . . فالمقام هنا لصرخة مدوية فى وجه الوثن حتى يزايله العفن . . وهيهات!

يقول صاحب المنار: [والتعبير بالضلال ليس فيه سبٌّ ولا جفاء . ولا غلظة ـ كما زعم من استشكله من الولد للوالد . . وقابَلَهُ بأمر الله تعالى لموسى وهارون أن يقولا لفرعون قولا لينا . وأجاب عنه بأنه حَسَنٌ للمصلحة. كالشدة فى تربية الأولاد أحيانا. . .والتعبير بالضلال المبين هنا: بيان للواقع باللفظ الدال عليه . كقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾.

وكقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الحسِّى: إن الطريق من هنا . . فأنت حائد . أو ضال عنه] أ. هـ.

وإذن . .فهذا المنطق يُحسب . .لإبراهيم عليه السلام . . ولا يحسب عليه. . إنه منطقٌ يواجه به قوما استمهنوا أنفسهم بهذا الموقف الغريب المعيب. .

منطقُ الداعية الموحِّد والذى يُنذر به وبالقوة التى خبأها الإيمان فى قلبه . . رَمْزَا الوَثنية فى قومه . . والذى زَلْزَلَ به كيانه. .منطق يهدم الباطل . . ليبنى على

أنقاضه الحق . .

يهدم بناء الشرك المتداعى . . ثم لا يتركه أطلالا تنعِق فيها البوم . .وإنما يحاول أن يركز راية التوحيد . . خفاقة فى مسرى الهواء.

ولئن زهت الحضارة المادية حينئذ بما لديها من إعلام . . وبهرجة . . فما فتّ ذلك فى عضد الداعية . . وما وهن . . ولا استكان . .

وظل يصرخ فيهم بكلمة التوحيد العالية الباقية . . لافتا أنظارهم إلى ضلال ما هم عليه . . فكلُّه . . كلُّه . . وهم يهجس به خيال . . سراب مِنْ بَعْده العذاب لأنه من المستحيل أن تبيع البقرة . . ثم تستبقى لبنها كما يقولون . .

مستحيل أن تشترى الحياة الدنيا بالآخرة . . ثم يبقى لك من عناصر السعادة ما تبكى عليه . . وإذا راح الإيمان . . فلا أمان ولا اطمئنان . .ولا دنيا لمن لم يحيى دينا.

*****

الداعية وآيات الكون

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ الآيات[الأنعام: ٧٥، ٧٦]

تهللت أسارير الداعية الشيخ عندما جاءه أبناؤه يهرعون إليه فرحين بالكأس الذى انتزعوه بِفَنِّهم من يد منافس عنيد . . فصاروا فى مجال الكرة روادا . .

ولم يشأ الشيخ الداعية أن يطفئ القنديل فى وجوهٍ تعيش أسعد لحظاتها . . فلما أحس منهم الرغبة فى التعليق قال لهم: انتصرنا فى اللعب . . فعسى أن ننتصر فى الجدّ.

وإذا كان الله تعالى قد نصرنا . . فلنواصل نصر دينه عز وجل وهكذا يعترف الداعية بالواقع المُعاش . . للمدعو . . استجابة لفطرته . . وفى نفس اللحظة يتقدم به على الطريق خطوة أخرى آخذا بيده إلى الأفضل . . لافتا نظره إلى ما يليق به كمسلم . . يعيش دنياه . . شريطة أن تكون مَعْبَرًا إلى اخراه . .

وهو واحد من دروس الدعوة الذى أسس عليه السلام قواعده حين تنزَّل مع الخصم مفترضا أن رأيه فى النجوم . . صحيح . . ثم ترقى به إلى أعلى فاتحا بصره على المعبود الحقيقى سبحانه وتعالى . . . وإبراهيم عليه السلام هو الجدير بإدارة المعركة بما من الله تعالى عليه من معرفةٍ بأسرار النفس . . مضافٍ إليها معرفته بطبيعة الكون وهو بعض ما يشير إليه قولُه تعالى:

﴿وكذلك﴾ ـ كما علمناه أسرار النفس ـ ﴿نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض..﴾ . . وهى نُقلة بعيدة من القسوة الحازمة . . إلى الحجة القاصمة . .

ولكن . . لابد من وقفة سريعة أمام قصة البشر مع كواكب السماء . .

قال العلماء: رأى الناس تغيرات أحوال العالم الأسفل مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب . . فإنه بحسب قرب الشمس وبُعدها من سمت الرأس . . تحدث

الفصول الأربعة . وبسبب حصول الفصول الأربعة .. تحدث الأصول المختلفة فى هذا العالم... ثم إن الناس ترصدوا أحوال سائر الكواكب: فاعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفية وقوعها فى طوالع الناس على أحوالٍ مختلفة. فلما اعتقدوا ذلك، غلب على ظنون أكثر الخلق: أن مبدأ حدوث الحوادث فى هذا العالم هو: الاتصالات الفلكية . والمناسبات الكوكبية. فلما اعتقدوا ذلك بالغوا فى تعظيمها] أ. هـ

وإذ يصل تعظيمها إلى اتخاذها آلهة .. فإن زعزعة الثقةَ بها تحتاج إلى الداعية الحكيم القادر على ذلك..

وكان ذلك الداعية: إبراهيم عليه الصلاة والسلام .. والذى بدأ خطته بافتراض الكواكب آلهة.

والسؤال الآن:

كيف جاز لإبراهيم عليه السلام أن يقول: هذا ربى للكوكب المخلوق؟

ويجيب الإمام الرازى فى تفسيره قائلا:

[إنه عليه السلام لما لم يجد إلى الدعوة التى أُمر بها طريقا سوى هذا كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر ، وقلبُه مطمئن بالإيمان. فإنه يجوز له النطق بها ظاهرا مع إنكار قلبه، وذلك ليَتَيسَّرَ له أن يُورد الدليل المبطل لقولهم وهم مستمعون له.

فإذا جازت كلمة الكفر لبقاء شخص واحد. فلأن تجوز لتخليص عالَم من العقلاء من باب أولى. ثم قال: ومما يقوِّى هذا القول أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق فى موضع آخر .وهو قوله تعالى: ﴿**فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم**﴾

أى: عليل مريض؛ وذلك لأن القوم كانوا يستدلون بعلم النجوم على حدوث الحوادث المستقبلة . فوافقهم فى الظاهر . مع أنه كان بريئا عنه فى الباطن . ليتوصل إلى كسر الأصنام . فمتى جازت الموافقة لهذا الغرض .. فَلِمَ لا تجوز فى مسألَتنا لمثل ذلك؟] أ. هـ

[من مظاهر التلطف]

وانظر كيف وضعَ قاعدة التخاطب على محور التلميح بدل التصريح:

فهو عليه السلام يقول: لا أحب .. ولم يقل لا أعبد..ثم يقول: لا أحب الآفلين .. ولم يقل: لا أحب النُجوم .. أو هذا النجمَ بالذات..

إنها إذن قضية تبدو عامة لا تصطدم مباشرة بمشاعر القوم .. الذين يعبدون هذه الكواكب .. فكان لابد من الدوران حول القضية على نحو لا يحسمها قبل أن يجيء ميقات هذا الحسم .. وإنه لآت لا ريب فيه.

ثم هو فى نفس الوقت قبل أن يحاكمهم إلى فطرتهم كما بَرَأها خالقها سبحانه.. وإنها لشاهدة عليهم بالتناقض حين يمنحون حبهم للآفلين .. وليس هذا من فيض الطبع السليم .

يقول صاحب المنار:

[والعاقل السليم الفطرة والذوق لا يختار لنفسه حب شيء يغيب عنه، ويُوحشهُ فَقْدُ جماله وكماله .. حتى فى الحُب الذى هو دون حب العبادة .. فإنْ أحب شيئا من ذلك .. فلا يلبثُ أن يسلوَ عنه . بنزوح الدار، والاحتجاب عن الأبصار .. إلا أن يصير حبه من هَوَسِ الخيال. وفنونِ الجنون والخبال.

وأما حب العبادة الذى هو أعلى الحب وأكمله ـ لأنه من مقتضى الفطرة السليمة والعقل الصحيح ـ فلا يجوز إلا أن يكون للرب الحاضر القريب، السميع، البصير، الرقيب، الذى لا يغيب ولا يأفِلُ، ولا ينسى ولا يذهَلُ الظاهرِ فى كل شيء بآياته وتجليه] أ. هـ

وعندئذ يَتَحقَّق الهدف الأول وهو: الإبقاء على القوم بين يدى الداعية يسمعون .. لأنه لم يواجههم ابتداء بتسفيه أحلامهم. فلما حدث ذلك .. ترقى فى الحوار درجة .. بمشهد القمر.. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين**﴾

ومعنى ذلك: أن نسبة الحَيْرة لتزداد فى قلوب القوم .. وبالتالى يزداد الشوق إلى معرفة الحق المنشود .. خروجا من ضباب الشرك..

وقد نجح الداعية حتى الآن بسحب البساط من تحت أرجلهم .. أى: بهزٍّ الثقة رويدا .. رويدا بإلههم المتغيرَ .. المتقلب .. وما يترتب على ذلك من إصغائهم حتى ينجلى الموقف عن الحق..لا سيما والداعية هنا يجعل القضية

المطروحة قضية شخصية:

فهو يتحدث عن هدايته هو: ﴿لئن لم يهدنى..﴾ ثم هو خائف من ضلاله.. هو شخصيا .. أما هم فخارج الدائرة .. وكأنهم ليسوا طرفا فى النزاع.. وصحيح أن رائحة السخرية لَتَفُوح من حولهم .. بيد أنه على أيِّ حال لم يصرح بها .. فكان ذلك تمهيدا للجولة الأخيرة التى يدمغ فيها الحقُّ الباطل فإذا هو زاهق .. وذلك قوله تعالى:

﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون﴾

وهنا يجىء التصريح .. بعد التلميح .. يجىء فى أوانه .. بعد أن استعدت النفوس لتلقيه. قال المفسرون منوهين بسنة التدرج هذه:

[والتعريض بضلالهم ثانيا أصرح وأقوى من قوله: **﴿لا أحب الآفلين﴾** وإنما ترقى فى ذلك؛ لأن الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الأول حجة .. فأنسوا بالقدح فى معتقدهم. ولو قيل هذه فى الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يَصْغَوْن إلى الاستدلال.. فَمَا عَرَّض صلوات الله عليه بأنهم فى ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعه إلى آخره.

والدليل على ذلك: أنه ترقَّى النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم. والتقريع بأنهم على شرك بين... ثم قيام الحجة عليهم، وتبلج الحق، وبلغَ من الظهور غاية المقصود] أ.هـ.

وهكذا.. يلفت الداعية أنظارهم إلى الشمس: فهى أكبر حجما .. وأوسع ضوءا .. وأشد حرارة .. فلما افترضها إلَهًا.. ثم رآها قد أفلت .. كان الوقت مناسبا للإعلان الصريح عن ضلالهم وذلك قوله تعالى: **﴿.. إنى برىء مما تشركون..﴾**

وهى ضربة موجعة للوثنية عبر التاريخ: فإذا بطل أن الكوكب والشمس .. أن يكون أحدهما إلها .. مع أنه مما لم تصنعه يد. ولا عمله بشر.. فكيف بِصنَمٍ يصنعه الإنسان .. ثم يعبده بهواه لا بأمر مولاه.

لقد حَرَص الداعية على ألا يفرَّ منه الصيد .. فنصب شباكه بحكمةٍ ودراية.. فدخل الصيد الشبكة .. وباختياره .. فإذا هو عصفور ضعيف .. فى

قبضة نَسْر خفاقِ الجناح!...وإنها لنهاية مترقعة لمن قابل الحق بالجحود:

لقد أمرهم الخليل عليه السلام باسم العقل: بما هو أنفع.. وباسم المروءة بما هو أجمل..

فما كانت لهم رغبة فى الأنفعِ ولا فى الأجمل .. فحفروا قبورهم بأيديهم.. ويبقى الموقف درسا: يثبِّت الله به المؤمنين .. بقدر ما يثبّط به الكافرين..

أجل: يثبت الله به المؤمنين ـ والدعاة منهم بخاصة ـ الذين تتقاضاهم الدعوة أن يكونوا ذلك الماء: إنه مع لينه. ينحت الصخر مع صلابته.

*****

نهاية المطاف

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ الآيات [الأنعام: ٧٩، ٨٠]

ما أكثر الأصنام حين تعدها: قد تكون صنما فى الأرض .. وقد تكون كوكبا فى السماء .. ولكن .. كيف يتعامل الداعية مع المفتونين بها؟ . تلك هى القضية:

إن طبيعة التعامل تفرضها نوعية الصنم: فالذى يُمرِّغ جبهته فى التراب بين يدى حجارة خرساء .. ربما لا تجد معاناةً فى إقناعه بتفاهة ما يعبد .. لأنه هو شخصيا مقتنع بتفاهته .. إذْ لا منفعة يجنيها من ورائه .. لكن الجحود يعقد لسانه عن الاعتراف بالحق.. أما الذى يعبد الكواكب .. فقد يتوهم الرائى أن لها منفعة .. ومن ثم فأنت محتاج إلى النَّفس الطويل .. دائرا حوله .. لعله أن يصحح فكرته.. من أجل ذلك .. نرى إبراهيم عليه السلام .. فيما يتعلق بالأصنام لا تطول وقفته .. وإنما سددها قذيفة فى دماغ الباطل .. وذلك قوله تعالى: ﴿أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين﴾

ولكنه فى شأن الكواكب يطول حديثه على نحو ما أشار المفسرون:

[.. طال نَفَس الخليل معها. لأن إبطال عبادتها يحتاج إلى بصر دقيق]

ولقد كنت أقول لطالب العلم الراغب فى الدعوة .. تعلّم من القرآن .. ومن قصة إبراهيم عليه السلام فى أمرك ونهيك:

فإذا كان المنكر «شرب الدخان» مثلا .. فيكفى الإنذار السريع المركز .. حين تغتنم فرصة وجودك مع الشارب المفتون .. لتُخرج من جيبك درهما هو ثمن السيجارة فى يد زميلك .. ثم تُشعله بين يديه نارا .. ثم لتبدأ المعركة الخاطفة: سيقول لك مجنونٌ ذلك الذى يحرق ماله .. وبيده ..

وسوف تصرخ فيه حينئذ: وفى هذا المكان من هو أشد جنونا منى. .هذا هو الذى يحرق رِئَتَيْه بالنار . . فيخسر ماله . . ونفسه. .

أما إذا كان المنكر خمرا . . فقد يزين الوسواس الخناس أن فيها فائدة . . ومن ثم . . يطول نفسك معه . . ولعلك . . ومع مرور الأيام أن تقدر بالنسمة الوانية أن تزلزل الصخرة الراسية!. .فإن استجاب المدعو . . فتلك أعز أمانينا . . وإن استمر فى عناده . . فقد حان الوقت لنعلن الحق الذى نلتزم به . . ضد الباطل الذى نتبرأ منه . . وعلى الملأ . . ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حى عن بينه.

ولقد فعل الخليل عليه السلام ذلك . . وعند ساعة الصفر . . وذلك قوله: ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ويعنى ذلك: أنه على الذين يطلبون النجاة ـ والسفينُ يَفْرد شراعة فى الاتجاه الصحيح . . عليهم أن يركبوا معه ليصلوا إلى مِرفأ اليقين . .

وقد تبقى هناك بقية من أمل فى قلوب القوم أن يراجع الداعية نفسه لعله أن يعود إليهم . . لكنه . . بالمنطق الصارم الجازم يقطع الطريق على هذا الأمل الكذوب . . وذلك قوله تعالى: ﴿ .. إنى برىء مما تشركون﴾.

ولا تُهمنا النتائج . . فهى بيد الله سبحانه وتعالى . . ولكن الذى يهمنا: سلامة المنهج . . وقد بَدَا المَنهج هنا على أوفى معانى الكمال . . حين عرض على أنظار القوم من مشاعد الطبيعة ما يوقظ الفطرة النائمة. .

إنك قد تكون فى بستان مورق ظليل . . ولكن لا تحس بما فيه من جمال وظلال . . لأن الهموم تشكِّل صداً متراكما يميت الإحساس . . أو يضعفه.

وإذن . . فليبدأ الداعية عمله بمحاولة التغيير من الداخل. . وهذا ما فعله إبراهيم عليه الصلام والسلام:

فقد رتب مراحل الخطاب . . هَدهَدةً للنفس حتى لا تصدم فى أمانيها. . وعلى أساس ما يحدثه فى الباطن من تغيير تكون قفزته التالية إلى مرحلة جديدة تتهيأ عندها نفس المدعو لاستقبال واردات الهدى، مصغية إليه مقبلة عليه.

وترتيب المراحل هنا مهم: لأن تعجل الثمرة بالمنطق الصارم الصحيح ابتداء قد يزيِّن للمدعو أن يتمرد ويستعلى. .

لقد كان إبراهيم عليه السلام كالسيل المنحدر:

فيه قوة الاندفاع . . وفيه أيضا عناصر الانتفاع. .

ومعنى ذلك ـ كما يقول المرحوم ـ الأستاذ البهى الخولى: أنه لا يقتلع الصخور المعترضة . وإنما ينفذ إلى ما وراءها . . إلى أن يعزلها . . بل ويغمُرها. . ثم يهيمن عليها فى نهاية المطاف.

ولقد هيمن عليهم فعلا بالحجة الدافعة . . فماذا فعل المقلدون المهزومون؟

ذلك ما تحكيه الآيات الكريمة: **﴿وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان﴾ الآيات.**

وكان عليهم إن لم يؤمنوا أن يسكتوا . . لكنهم مضوا سادرين فى غيهم باحثين عن حجة يرمون بها الحق فى مقتل . . ولقد حاولوا . . فجادلوا . . وهكذا تثير كلمة الحق الزنابير التى تهيج . . لأنها من الحق فى أمر مريج.

وهذا واحد من أقسى الاختبارات فى تاريخ الدعاة حين يواجهون قلوبًا كالحجارة: لا تطبخها النار . . ولا يُذيبها الماء. . ولا تثيرها الرياح!

وقد تَتحَمَّل كإنسان بُعد الأحباء. . لكن قرب الأعداء أقسى!.

ومن رحمة الله تعالى أن يسعف الداعية بالوعى الكاشف عن طبائع النفوس ليظل مستمسكا بالعروة الوثقى.

ومن ذلك ما قاله العلماء: [فكثيرا ما يضطرب المقلد لسماع الحجة . إذ يومض فى قلبه برقها . ويُهز شعوره رعدها، ويكاد يحييه وَدْقها ـ أى مطرها، ثم يُنْكَس على رأسه ويعود إلى سابق وهمه] أ. هـ.

وهذا ما فعله بعد أن أسفر صبح الحق لكل ذى عينين . . ولا تعْدمُ الخرقاء علة . . فقد خوَّفوه بآلهتهم . . وتلك كانت حجتهم . . وبها كانت نهايتهُم!

وقد تحدرت هذه الطبيعة من الأسلاف إلى الأخلاف: يغضب الإنسان إذا قيل له: يا حيوان . . لكنه وفى نفس الوقت لا يغضب إذا عاش عيشة الحيوان . . بل

إنه ليشغب على هذا الذى أراد أن يجعل منه إنسانا سويا . . وسَلِ الواقع ينبئك بالخبر:

يعلن «ماركونى» كما قيل أنه سيضغط على «زر» فى إيطاليا ليضىء مصباحا فى استراليا . . فيَعْجب الناس بالمقدرة الفائقة . . بينما ملايين المصابيح فى السماء. . تضىء . . بغير زر . . وبلا زيت . . وبلا كهرباء . . وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.

ولكن الداعية الحق بعون الله قادر على إسكاتهم . . وذلك بمثل هذا المنطق الصارم على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: **﴿قال أتحاجونى فى الله وقد هدان..﴾**

إنها الْمُفَارقة العجيبة أن يستمر مسلسل التمرد والعناد بعدما تبين الحق . . بل وتعلو نبرة التمرد فى ذات اللحظة التى فرض فيها ذلك الحق وجوده على الموقف. . بفضل الله تعالى الذى أجرى على لسان نبيه الحكمة وفصل الخطاب؟وإذا يشغب المبطلون على الداعية لأنه بَانَ أنه على الحق . .

فماذا يقول الداعية. .

وليس يصح فى الأذهان شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل

وياله من موقف غريب مريب أن يصبح فضلك خصما لأعدائك من الأراذل:

إذا محاسنى اللاتى أدل بها   كانت عيوبى . . . فقل لى كيف أعتذر؟!وليت شعرى: كيف تعتذر . . وماذا أنت قائل لأناس يشغبون عليك حين اهتديت إلى تطبيق الشرع فى ذات نفسك فردا. . أو فى أمتك حاكما . . فمنعت بالتطبيق سم الأفعى أن يتمشى فى دماء الأمة . . حين قطعت ذنب الأفعى . . بل رأسها . . لتظل الدماء تتمشى فى عروق الأمة عافية وحيوية يغيظ الله بها الكفار؟

ولكن الداعية يعلنها مدوية: **﴿لا أخاف ما تشركون به﴾** ولا ما تهتدون به. . وكيف يخاف من عَمَر قلبَه الإيمان . . إن الخوف هناك فى قلوب خواء من الإيمان. . ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ وصدق الله العظيم. . ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾.

آتاه سبحانه الحجة الغالبة .. والتى علاهم بها .. ثم مَنَّ عليه بذُرية صالحة تظل بها كلمة التوحيد باقية فى عقبه..

وما تزال حجة الله تعالى غالبة .. متاحة لكل من سار على درب إبراهيم عليه السلام: الذى وَفَّى.. فغرس فى قلبه شجرة الحكمة.. فجنى ثمرة التوفيق:

ومن سار على دربه وصل .. هذا الدرب الذى تنبث على جانبيه معالم الدعوة الظافرة ومنها:

أ ـ مجاراة الخصم فى دعواه .. استدراجا.

ب ـ التعامل معه على سنة التدرج .. تلطفا به وأَخْذًا له على غرة.

جـ ـ استثمار أدلةِ فطرةِ النفس .. وفطرةِ الكون .. الهاتفةِ كلُّها بحقيقة الحقائق: التوحيد..

وهذا هو واجبك أيها الداعية .. فإن آمنوا .. فقد اهتدوا .. وإلا: ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾

[والدول أيضا]

وكما لجأ الجاحدون إلى العناد والتخويف .. طمعا فى هزيمة الداعى .. تلجأ الدول ـ كما قرر البصراء ـ إلى مثل ما فعل الأولون:

إنها تخوف الدولة الإسلامية من أختها .. فتسرع الأيدى إلى حمل السلاح.. يسيل الدم المستباح.

وماذا بعد؟..تتقدم الشركات الأجنبية التابعة لدول الفتنة ـ لإصلاح ما خربته الحرب التى أشعلوها...ولتدفع الدول الإسلامية الثمن من مالها .. بعد أن دفعته غاليا من دماء أبنائها..وقبل هذا تتدفق الأسلحة من كل صوب .. وندفع نحن أيضا..

بل إن الدول الكبرى لا تريد للشعوب الآمنة أن تظل كذلك .. إنها لتجرها إلى ساحة القتال جرا .. وسوف تموت تحت أقدام المتصارعين الذين أقنعوها بأن حياتها فى اللجوء إلى واحد من المعسكرين؟!

إنها نظرية الفيلة .. عندما تتقاتل كما يقول المثل الآتى من سنغافورة:

[عندما تتشاجر الفيلة . فإنها تطأ العشب. وعند المداعبة أيضا: يتأثر العشب أيضا. .ثم تكون الكارثة على العشب . إذا تبادلت الفيلة العناق. .]

والعشب هنا هو الدول الصغيرة . التى استبد بها الخوف إلى حد أنها أسرفت فى شراء السلاح . . بينما هى فى حاجة إلى حبة القمح . . وحبة الدواء!ـ ولكن البقاء للأصلح

لكن البقاء للأصلح دائما . . كما دلت على ذلك قصة الخليل هنا: فقد تبخرت شبهات الباطل . . وبقيت حجة الحق تمسك بزمام الحياة. .

﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾

ولقد من الله تعالى عليه بذرية تحملت من بعده مسئولية الدعوة على مدار الزمان . . محكومة بسنن الله تعالى والتى لا تحابى أحدا ولو كان رسولا نبيا. .

ومن هذه السنن: **﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾**

لو انحرفوا عن سواء الصراط لحقت عليهم كلمة العقاب. . وعلى الدعاة أن يفهموا هذه الحقيقة . . فإن جلائل الأعمال لا تغنيهم إذا ما فرطوا فى جنب الله وجاملوا على حساب العقيدة التى يجب أن تظل دائما بنجوة من ساحة المساومات. .

*****

الداعية بين الذكاء والزكاء

يدخل الداعية ساحة الدعوة بعقله الذكى . . وقلبه الزكى:

وإذا كانت فضيلة القلب: الحب . . فإنه بالحب يجمع القطيع الشارد . . متلطفا به . . متوددًا إليه . .

وإذا كانت فضيلة العقل هى: الذكاء . . فإنه بالذكاء يكون له حُسَّاد يركبون متن العناد إرادة القضاء عليه . .

وإذا يطالعنا الواقع المائل بالكريم . . يُسلَّط عليه اللئيم . . والعالم . . يسلط عليه الجاهل . . فقد ابتلى إبراهيم عليه السلام باللئيم . . الجاهل معا: النمْرود . . والذى كان بادعائه الربوبية حلقة أخيرة فى مسلسل الابتلاء الذى واجهه الخليل عليه السلام بما من الله عليه من اليقين . . وذلك قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فمن هو المدعو؟ وما هو منهج الداعية فى تطويقه ثم القضاء عليه أخيرا؟ إن المدعو هو: النمرود:

والذى تخايل وتطاول، فبَطِرَتْه نعمة الملك . . ومن طغيانه: أنه كان يمنع الطعام عن الشعب أياما، فى محاولة لتجويعه . . حتى إذا عضه الجوع . سجد له من دون الله تعالى. وكان كاذبا . يروج الباطل . . وانحصرت مهمته فى: قتل الخلق ومعارضة الحق وهكذا يفعل الكفر بأهله دائما: كلما طوقهم الحق، وسد أمامهم المسالك فعجزوا عن مواجهته، شغلوا أنفسهم بقتل الأبرياء . تنفيسا عن حقدهم المكتوم إزاء أناس صَفَتْ أنفسهم. وشرُفت معادنهم . . فلما لم يستطيعوا تحويلهم ليكونوا فى الكفر سواء. . أنابوا عنهم السيف. بعد أن أعجزهم البرهان!

ولقد كانت مهمة الداعية صعبة مع هذا الطراز من الطغاة . . مقابلةً

بالطواغيت الصغار من عباد الأصنام.

ذهبت هموم حرِتْ فى أسمائها وأتت هموم مالهن أسامى

ولا بأس .. أن يُمتحن الإيمان بأقسى ألوان الامتحان .. كما أنه لا بأس من اللهب .. إذا صَفَّى الذهبَ

ومن هنا بدأت رحلة الابتلاء: ﴿ألم تر..﴾

وهذا تعجيب من وضع غريب يستحق التعجب فعلا .. وهو مِثلُ قولك: ألم تر إلى فلان..؟ كيف يصنع؟! ومعناه: هل رأيت كفلان هذا فى صنعه؟!!

ولقد كان موقف النمرود هكذا:

لقد آتاه الله الملك نعمة منه تعالى. وكان المتوقع أن يشكر واهب هذه النعمة سبحانه بتسخيرها فى التمكين لشرعه .. لكنه عكسَ الآية .. فأساء استغلالها حين جعل شكرها تنكيلا بعيال واهبها سبحانه وتعالى .. ثم حاول العبد .. الهزيل الضئيل أن يتطاول على مولاه فزعم أنه قادر على منح الحياة..

ولاحِظْ أن الآية الكريمة لا تقول: جادل .. أو حاور .. وإنما: حاجّ.

أى أن الباطل وفى غمرة إحساسه بالضعف .. لا يكتفى بمجرد الجدال أو المراء .. وإنما يبحث عن الحجة .. عن البرهان الذى يظنه قويا .. لعله وبضربة الخوف هذه أن ينال من الحق .. وهيهات!

ولنترك الباطل يلملم شمله المبعثر لنرى الحق على لسان الداعية وقلبه: ﴿..قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت﴾

وكان على الطاغية أن يتسمّع صوت الحقيقة يأتيه من أعماقه..

كان عليه إزاء البرهان القاطع أن يصمُت .. فالصمت آلة الحلم.. أو يفهم فالفهم آلة العلم .. ولكن كيف يكون للعلم أو الحلم مكان فى قلوب عليها أقفالها؟

وإذْ لم يفعل ذلك .. فَمَنْ لَمْ تُصلحه الكرامة .. فليصلحه الهوان! وعلى هذا الأساس مضى الداعية فى خطته على النحو الآتى كما تشير الآية الكريمة:

١ ـ وجد الداعيةُ نفسه أمام خصم عنيد .. يجيد فن المناورة والمهاتره ومن

حوله رعاع لا يكادون يفقهون حديثا .. ومن الممكن أن يكون لهم مُكاء ولهم تصدية . يشوشون بها على الحق.

٢ ـ وإذن فليتخير من البراهين المقنعة ما يُقَلِّم أظافر هذا العنيد .. ويشل حركته .. متجاوزا الأمور الهامشية التى قد يتخذها المعاندون سوقا رائجة للشغب والمشاكسة.

٣ ـ من أجل ذلك تخير قضية الموت والحياة، وهى من النصوع والوضوح لدرجة أن أحدا لا يمكن أن يزعم قدرته على الإحياء والإماتة.

٤ ـ ولقد اختار من أسماء الموصول «الذى» فى **﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾** وهو أصل الموصولات وعُمدتُها .. مشيرا إلى أن منشئ الحياة وواهبها هو الله تعالى دون سواه.. ،كما أن «الذى» عمدةٌ .. فى باب الموصول .. بلا إبهام . فإن الله تعالى هو الذى يحيى ويميت بلاشك ولا إبهام كذلك.

ولو كان التعبير «بمَن» بدل «الذى».. لما أدت هذا المعنى الدقيق لأن «مَنْ» ليست ممحضة للموصولية.

٥ ـ والتعبير بالمضارع فى «يحيى ويميت» دال على أن ذلك الإحياء وتلك الإماتة مستمرة .. متجددة .. لا تنتهى من دليل حتى تواجه بألف دليل ..فلا تملك الفرار من أدلة وتناديك بل تحتويك.

٦ ـ ويلاحظ هنا: تقديمُ الحياة على الموت .. والشأن فى آيات كثيرة تقديم الموت على الحياة .. فى مثل قوله تعالى: **﴿الذى خلق الموت والحياة..﴾**، وقوله تعالى: **﴿الذى يميتنى ثم يحيين﴾**.

وإذا كان الأمر كذلك .. فلم قدم الحياة هنا على الموت؟

ربما والله تعالى أعلم ـ ربما كان الداعية لا يريد أن يفتح على نفسه بابا من الجدل العقيم من قبل المعاند: يثور فيه الغبار .. وتتشابك فيه الآراء .. ثم لا ينْفَضُّ الاشتباك .. وهى لحظة بلا شك .. من مصلحة المعاند الذى لا تحلو له الحركة إلا فى الضباب!!

من أجل ذلك نرى الداعية .. نَرَى إبراهيم عليه السلام .. الذى وفَّى .. ما يزال وفيا لمبدئه .. كيف؟

فكما أنه اختار من البراهين أوضحها . يظل سائرا فى الضوء . . فيُقَدِّم من الفروض ما يُجَلِّى الحق سريعا . . وحتى لا يطول الجدل . . ويتحولَ إلى مراء نشبع به نِهمة المدعو إليه!

ثم هو من ناحية أخرى شفقة بالمدعو ليستجيب للحق . . فليس للداعية من وطر فى تعذيب الضحية!

ثم إن تقديم الحياة فى الذكر مسارعة إلى تجلية الحق . حتى لا يبقى للمعاند شبهة يتذرع بها . . فهى أدخل فى الإقناع من الموت . . لماذا؟

١ ـ ذلك بأن شرائط الحياة ومظاهرها أوفر . وأظهر.

٢ ـ ثم هى مشاهدة من قِبَل المدعو تملأ ناظريه.

٣ ـ ومن هنا . . فهى محرجة له . ملحّة فى دعواه إلى اعتناق الحق . على نحو لا يتيسر للمعانى المجردة . . والتى يمكن المكابرة فيها . . وإن كانت فى ذاتها ثابتة.

وهكذا . . ينطلق الداعية بمنهجه الراشد صوب المدعو . .

وفى الوقت الذى يبلغ إعجابُنَا بالداعية أقصى مداه . . . فى هذا الوقت بالذات لا ينتهى عجبنا من تصرف المعاند الذى يرى الشمس فى رائعة النهار . . ثم ينكرها . . بهذه الحركة الطائشة: فماذا فعل؟

﴿قال أنا أحيى وأميت﴾

لقد أحضر رجلين، فقتل أحدهما . . وأبقى على الآخر . . زاعما أن ذلك كافٍ فى إثبات ألوهيته على الأقل فى تصور الدهماء من أشياعه.

وياله من ادعاء كاذب . . خاطئ . . ورب كلمة تقول لصاحبها دعنى!

ولكن المعاند قالها . . فانظر ماذا ترى . . وإلى أى قرار من الهوان كان سقوط المعاند أمام هجمة الحق المنتصر:

﴿قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾

ولقد سقط الطاغية . . بالضربة القاضية:

لقد بُهت .. اندهش .. تحيّر .. فوجئ بما لم يكن له فى حساب .. فبدأ البناء فى السقوط .. والمنزلة فى الهبوط..

وكان منطقيا أن يكون البهت من نصيب البهات .. القَوّال على الناس ما لم يقولوا.. وويل للذين يحاولون تبييض صحائفهم بتسويد صحائف الآخرين .. إن لهم يوما كيوم فرعون: يُنجيهم الله تعالى بأبدانهم .. ليكونوا للناس آية .

ولكن .. ما هى الضربة التى سددها الداعية إلى قلب الطاغية؟

لم تكن رصاصة طائشة كما لم تكن كلمة فاحشة..ولكنها الحجة البانية .. لأنها هادية..

إن بأيدى الدعاة نورين: ذكرا.. وحكمة .. وإذن فلن يكونوا أبدا فى حالك الظلمات .. إنهم منهما فيما يشبه الصحوة الكبرى وعليهم أن يَتْعبوا فى استخراج الدرر من بين الأصداف .. وإنهم لمنتصرون فى النهاية على وثنية تريد استعباد الإنسان..

إن الله سبحانه وتعالى يعطينا «الجَوْز» .. لكنه سبحانه لا يكْسِره لنا ..

وقد أنعم علينا بالقرآن العظيم .. وبالسنة المطهرة مبيِّنة له .. ثم أعطانا نعمة الإدراك .. والفهم .. لنستخرج منهما اللؤلؤ والمرجان واللحم الطرى .. ونحن نحب الدعوة فلنعمل لها. بحسن المقال .. لا بحدة الانفعال.

ومن لم يتعود الجلوس حيث يكره .. لم يجلس فى العام التالى حيث يحب.

*****

اندحار الباطل

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨].

القائد العسكرى الناجح .. لا يرمى بقواته إلى الميدان مرة واحدة .. بل إنه ليستبقى أقوى الكتائب لساعة الصفر .. وعندئذ يرمى بها فى وجه العدو فإذا الضّربة المفاجئة تقصم ظهره..

إنه يواجه المدعو أولا .. بالدليل الواضح . فإذا لم يقتنع .. عززه بالدليل الأوضح .. وهو ما فعله إبراهيم عليه السلام حين قال أولا:

﴿ربى الذى يحيى ويميت..﴾ ثم قال ثانيا: ﴿.. إن الله يأتى بالشمس من المشرق فائت بها من الغرب..﴾

وإذا كانوا يقولون: متى تملك القلب الذكى وصارما ـ وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فإن الداعية له مع المدعو شأنٌ آخر؛ شأنٌ ذلك الفلاح الذى كَلَّف ولده باقتلاع النبتة الخبيثة .. فحاول الفتى اقتلاعها بالقوة .. فأرشده أبوه إلى ما تنتهى إلى القوة من تعَلُّق أغصانها بيده .. ويبقى الجذع من بعدُ صالحا للنماء .. وإنما المطلوب، هزها برفق ولين .. لتجتث من أصولها. وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام

ألم تر إلى قوله أولا: ﴿ربى الذى يحيى ويميت..﴾ ربى .. قالها إيناسًا للمدعو .. وهدهدةً لمشاعره لعله أن يفيق.

فلما ظل سادرا فى غيه فاجأه باسم الجلالة وما يشى به من قوة .. ﴿قال فإن الله يأتى بالشمس..﴾.

ولقد كان من الممكن أن يَختَصر الجدال بذكر الدليل المسكت دوان سواه. .ولكن الداعية هنا: يتنقل من دليل إلى دليل . . ملاحقةً للشبهة حتى تتبخر تماما طبق سنته تعالى فى التدرج . . وأخذ النفوس إلى الحق بالصبرة والأناة . . حتى يتسرب إليها الحق . . ثم يتمشى فى دماها.

ألا وإن الشرك ظلم . . فهو إذن ظلمة فى النفس تنعكس على السلوك خلطا وتشويشا . .

وواجب الداعية إخراجُ هذا الظالم . . من الظلمات . . ظلمات نفسه إلى النور. . وهذه النقلة البعيدة . . وهذا التحول العظيم . . لا يستطيعه إلا داعية يدرك عظم مسئوليته التى لا تنحصر فى مجرد الغلب . . ودحر الضحية.لكنها بالدرجة الأولى مسئولية بناء . . تتوخى جذب المدعو ليقفَ معنا . . وفى نفس الخندق . . يحارب معنا الباطل الذى كان بالأمس من أشياعه.

ألا وإنه لا يكفى أن تكون فى النور لينجذب الناس إليك . . لا يكفى أن تكون فى ذاتك عابدا زاهدا حتى ينضمّ إلى ذلك أن تكون «منيرا» كما كان رسولنا ﷺ سراجا منيرا.

على أى حال: كان هذا التحدى الأكبر من إبراهيم عليه السلام مفاجأة غير متوقعة. . ومن شأن المفاجأة أن تربك العدو ربكة تَنْقُض غزله من بعد قوة أنكاثا. . وتقلب حساباته رأسا على عقب . . ثم تشتُت فكره . . فإذا هو صامت لا يقدر على الكلام . . وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة. . ﴿فبُهت الذى كفر﴾

وكانت هذه النتيجة طبيعية: لأنه كَفَر . . فَستَر بالكفر صوت الحق فى فطرته. . .ولأنه ظالم . . والله لا يهدى القوم الظالمين.

أما الداعية: فلأنه مؤمن . . ولأنه عادل . . فقد كان منطقيا أن يكون النصر حليفةَ . . هذا النصر الذى أتمه الله على عبده إبراهيم عليه السلام والذى جاء عبر مراحل هى:

١ ـ تَجَاوَزَ الداعية لحظة الإحراج التى تفرض نفسها حين تتلاقى الجماهير على تملق الطاغية وتتنادى بنصرته . . فهى سلاحه الذى يناوئ به الحق الأعزل.

٢ ـ كان للسرعة الخاطفة دورُها فى إجهاض شغب العامة على الحق. .ثم إن

للجلادين منطقا خداعا. والإسراع فى إحباطه كسر لشوكة العدوان قبل أن يستشرى.

٣ ـ لما سكت الطاغية .. انفرط عقد الثقة به .. وتفرق من حوله الأتباع والأشياع .. وثار «أشِقّاءُ» الأمس «أشقياء» اليوم بالهوان الذى فُرِض عليهم جميعا.

٤ ـ إذا علمنا أن المحاجة حدثت ـ كما روى ـ بعد أن أخرجه النُمْرود من السجن .. تبين لنا بجلاء صعوبةُ الظروف التى فرضت على إبراهيم عليه السلام: ثم كيف استعلى بإيمانه وهو ما يزال فى قبضة الطاغية وبينما أطياف السجن تملأ وعيه . وكيف مع هذا أدار معركة الحوار بهذا الثبات .. وهذا الوضوح

[فليبق الأمل .. ودائما]

ونتساءل: من كان يظن أن النمرود الكافر الطاغى سيسقط يوما ثم لا يجد من يبكى عليه!

لقد سقط النمروذ الكافر .. الظالم .. ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ وهذه حقيقة .. ولكنها لا تنسينا حقيقة أخرى هى أن سقوطه كان على يد داعية مؤهل لمواجهته هو إبراهيم عليه السلام.

وهنا نجد أنفسنا أمام أمور لابد من وقفة حيالها:

أولا: كما يقولون: إن الأيام ليست ملكا لأحد . بل هى دُولَةٌ بين البشر جميعا.

يقول تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ .. الناس جميعا فهى سنةُ الله تعالى الماضيةُ فيهم .. والذين يجلسون على القمة.. ومَنْ دونهم فى السفح.. سوف يتبادلون المواقع يوما .. وإذن فلا داعى لليأس فى معركتنا نحن المسلمين .. مع أعدائنا من الكافرين الظالمين .. الظانين بالله ظن السوء .. عليهم دائرة السوء.

وثانيا: لم يصر إبراهيم عليه السلام ـ كما قيل بحق ـ إماما إلا بعد أن دفع ثمن هذه الإمامة:

اتخذه الله تعالى عبدا قبل أن يتخذه نبيا.. ونبيا.. قبل أن يكون رسولا..

ورسولا قبل أن يكون خليلا... وخليلا.. قبل أن يكون إماما... فللإمامة تكاليفها:

ولقد كان من الممكن أن يطوّح الله تعالى به بعيدا عن النار .. أو أن يسلّط عليها ريحا فتطفئها.

لكن .. لابد للداعية من النزول على أرض المعركة .. بسلاحه: وما هو سلاحه؟؟

فِقهٌ لشرع الله .. ومن ورائه قلب ودود يرى العصاة مرضى .. فى حاجة إلى علاج..

إن الدعاة أساة .. وليسوا قضاة..

وإذ يسعد الطبيب حين يبرأ مريضه من علته .. فإن الداعية أسعد بمدعوّه إذا أقلع عن معصيته..

وإذ المريض .. وأحاطَتْ به خطيئته.. بكى من أجله.. لأنه لا يريد أن يظل على القمة وحده .. فإن فى القمة متسعا للجميع .. ومنهم ذلك المدعو .. الذى تظل هدايته أملا تجيش به نفسه.

وثالثا: يبقى الجواب المقنع المفحم سلاحا من أسلحة الدعوة .. وفنا من فنون الدعوة يُنال بالتعلم ..

يقول ابن عبد ربِه فى العقد الفريد: [إن الجوابات هى أصعب الكلام كلِّه مركبا . وأعزُه مطلبا . وأغمضُه منصبا .. وأضيقُه مسلكا... لأن صاحبه يُعمل الفكر . ويستعمل القريحة .. يروم فى بديهته نقض ما أبرم القائل فى رَوِيَّتِه ثم يقول:

فلا يزال فى نسج الكلام واستنبائه. حتى إذا اطمأن شارده . وسكن نافره ، حَكَّ به خصمه جملةً واحدة ثم قيل له:

أجب ولا تخطئ، وأسرع ولا تبطئ .. فتراه بجوابٍ من غير أناة، ولا استعداد ، كما يُرمى الجندل بالجندل، والحديد بالحديد. فيُحلّ به عراه ، وينقضُ به مَرائره.

ولا شىء أعضلُ من الجواب الحاضر، ولا أعزُ من الخصم الألد، والذى يقرع

صاحبه، ويَصدعُ مُنازِعَه بقول. كَمِثْلِ النار فى الحطب الجزل] أ.هـ.

وياله من موطن من مواطن الأسوة فى حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .. يتقاضى الدعاة أن يحتذوه .. بَعْد أن يُتْقنوه. وإذ يَفْتِل أعداؤنا الحبل لنا إرادة هزيمتنا .. فلنكن لهم بالمرصاد .. وبالكلمة التى نسددها لتصيب منهم مقتلا ..

وما أكثر أحفاد هذا النمروذ .. على مستوى الكرة الأرضية .. والذين يضاهئون ما فعل جَدّهم الخداع الماكر..

وما أسعد أمتنا بدعاة يتخذون من أبيهم إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة.. وإنهم لهم المنصورون بإذن الله .. متى جعلوا من تأسيه هدفا.. ومن حسن عرضه وسيلة.. يسكتون بها صوت الباطل .. ليبقى الحق بهم مسموع الكلمة.. مرفوع اللواء.

وقد أشار صاحب المنار إلى بعض ما أورده المرتابون من شبه حول جواب إبراهيم عليه السلام:

١ ـ لم سكت إبراهيم عن كشف شبهته الأولى إذ زعم أن ترك القتل إحياء.

٢ ـ كان النمروذ يقول لإبراهيم: إذا كان ربك هو الذى يأتى بالشمس من المشرق، وهو قادر على ما طالبتنى به من الإتيان بها من المغرب فليأت بها يوما ما.

قال بعض المقلدين: ولا يمكن أن يسأل إبراهيم ربه ذلك . لأن فيه خراب العالم.

وقال بعض المرتابين: أنه لو قال له نمروذ ذلك لألزمه!

والجواب عن الشبهة الأولى:

أن إبراهيم عليه السلام لم يسكت . وإنما تحداه بمسألة الشمس التى أخرست لسانه «فقد كشفت ذلك انكشافا لا يخفى إلا على من تخفى عليه الشمس»!! وتفادى بذلك الدخول مع النمروذ فى محاكاة لفظية لا ينتصر فيها إلا من يجيدون المهاترة. وفيما يتعلق بالشبهة الثانية فإنها غير واردة . حتى فى ذهن النمروذ.

يقول صاحب المنار:

[وقد فهم نمروذ - على طغيانه وغروره - من الحجة ما لا يفهم هؤلاء القائلون: فهم مراد إبراهيم أن هذا النظام فى سير الشمس لابد له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله لمصادفة ، وأن ربى الذى أعبده هو ذلك الفاعل الحكيم، الذى قضت حكمته بأن تكون الشمس على ما نرى . ومن فهم هذا لا يمكن أن يقول: أطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن كلمته ويبطل سننه].

وهكذا فهم الطاغية من حكمة الله ما لم يفهمه ملاحدة اليوم الذين ينكرون الشمس فى رائعة النهار.

وما أثقل مهمة الدعاة اليوم فى ملاحدة محدثين يجيدون فن المراوغة والمكابرة. الأمر الذى يفرض على الدعاة التسليح بكل جديد من فنون القول وتصاريف الكلام، لينتصروا فى معركة يجند لها المبطلون كل ما يملكون من طاقات.

عاقبة الطغيان:

قال إبليس - كما حكى القرآن: ﴿**أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾

فكانت العاقبة: ﴿**فاخرج منها فإنك رجيم**﴾

وقال «النمروذ» كما حكى القرآن: ﴿**أنا أحيى وأميت**﴾

فكانت العاقبة: ﴿**فبهت الذى كفر**﴾

وقال فرعون - كما حكى القرآن: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾

فكانت العاقبة: ﴿**فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم**»

وقال قارون كما حكى القرآن: ﴿**إنما أوتيته على علم عندى**﴾

فكانت العاقبة: ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾

وقال صاحب الجنتين - كما حكى القرآن: ﴿**أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا**﴾

فكانت العاقبة: ﴿**فأصبح يقلب كفيه**﴾

وهكذا عاقبة كل طاغ ، وظالم.

من دعاء الخليل

يقول الله تعالى فى سورة إبراهيم:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١].

تمهيد:

طبيعة المعركة بيننا وبين الشيطان تحددها خصيصته: فهو: خناس.. بل هو الخناس... مقاتل.. يجيد المناوره.. مكرٌ مفر.. مقبل مدبر معا: يذهب ويجىء..

ويعنى ذلك كما يشير العلماء: أن معركتنا معه طويلة.. طويلة.. ما دامت هناك حياة. لأن الإصرار على غوايتنا غاية مناه.. وقد منح هذه الصلاحية أخذا من قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٧٩ـ٨٣].

ولكن لماذا نجا العباد المخلصون من شركه المنصوب؟

*** والجواب:**

أولا: لأنهم عرفوا بالحس الإيمانى أنه ما دام يخنس.. فهو ضعيف.. لا

يصبر على مواجهة الحق طويلا.. وإذن فالانتصار عليه ـ بالمصابرة ـ مضمون النجاح.

وثانيا: لأنهم واثقون بنصره تعالى..برحمانيته..فى كل موقف..ورحمته.. فى كل لحظة.. ومن أجل ذلك يخوضون معركة الدعوة على أوفى ما يكون الإيمان..

وكان الخليل عليه السلام فى طليعة هؤلاء المؤمنين: بما أوتى من الإيمان الذى يكافئ موقعه هذا المرموق.. وهذا ما تشير إليه خطواته الأولى على طريق الدعوة [كان إبراهيم عليه السلام قد ولد فى العراق القديم... وكان العراق بلدا متحضرا فى ذلك العصر.. وكان آزر والد إبراهيم وجد إسماعيل من كبار المسئولين فى الحكومة العراقية...إلا أنهما لم يحتملا نظام العراق القائم على الشرك، مع أن فرص الترقى كانت مفتوحة أمام إبراهيم وإسماعيل فهجرا ذلك البلد الخصيب، لكى يعبدا الله الواحد الأحد.

وتوجها إلى الصحراء العربية الجدباء إذ ليس فيها شىء يحول بين الخالق ومخلوقه...وهنالك قاما ببناء بيت الله؛ ليكون مركزا عالميا لعبادة الله الأحد.

وهنا كان من حكمة الله أن ينشأ نسل جديد من البشر بعيدا عن مؤثرات بيئة الشرك.. وكان أنسب شىء لهذا: مكان غيرمأهول.

والإنسان الأول المطلوب لإنشاء نسل جديد فى هذه المنطقة الصحراوية هو من يكون مستعدا مدركا أنه قد يدفع حياته ثمن العيش به(1).

وكان هذا الرجل هو إبراهيم عليه السلام الذى آتاه الله رشده من قبل أن يكون رسولا..

ثم كان «أمة»...أمة: تحمل مسئولية العيش فى بيئة قفر.. ثم مسئولية الدعوة فى ظروف صعبة...ثم كان أمة حين.. واجه.. وحده أمة بأسرها.. بما فيها أبوه.

همة الداعية.. وهمومه:

إن هموم الداعية دائما على قدر همته..ولقد كانت همته عليه الصلاة

(1) حقيقة الحج ـ وحيد الدين خان.

والسلام فى الثريا.. وهذا ما تشرق به الآيات الكريمة من سورة إبراهيم والتى نحن بصدد التعليق عليها:

وبادئ ذى بدئ:

لقد كان التوحيد منتهى آماله ـ لتظل كلمة باقية فى عقبه..

ومن أجل تحقيق هذه الغاية الكبرى كان هذا الدعاء الضارع.. والذى يعكس فى نفس الوقت منهج الداعية فى الإصلاح:

على مستوى الفرد..

وفى محيط الأسرة..

وعلى مستوى الأمة كلها.

أما على مستوى الأمة:

فقد كان الأمن مطلبه الأول.. ففى ظلال الأمن تصفو الحياة..ثم.. أن يرزقهم الله من الثمرات.. وهى دعوة إلى تحرير الاقتصاد الإسلامى من التبعية.. بهذه الزروع النابتة على أرضنا وافرة المحصول محققةً المأمول وهو: استقلال الشخصية الإسلامية التى تأكل مما تزرع، ولا تمد يدها.. لتأخذ من جيب غيرها.. ليأخذوا بَعدُ.. من قلبها!

وهكذا يعبّر الدعاء عن قلب وسيع يستوعب هموم الحاضر والمستقبل..بعد ما اتسع للمطيع والعاصى معا:

أما المطيع: فمن تبعنى فإنه منى..وأما العاصى: ﴿**وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.. يظل بابك مفتوحا ليعود الشارد إلى الحق وهكذا قلب الداعية دائما: أكبر من الواقع.. وأوسع من الدنيا.

أما على مستوى الأسرة:

فهذا والد يغالب فى كيانه غريزة الأبوة.. فيغلبها تاركا ولده الحبيب فى صحراء جرداء..وينشأ الصبى نشأة فروسية تعده لمستقبل عظيم..

وقد أثمرت التربية الخشنة ثمراتها المباركات:

فها هو ذا ولده يشب عن الطوق.. ثم يقف إلى جانبه عاملا آملا يبنى معه

البيت الحرام . .

ومع كل حجر يضعه فوق حجر . . يبنى فى ولده شخصيته المقبلة بما يُعلِّمه من قيم عالية : فالعمل اليدوى حرفة شريفة . . ومع العمل . . كان الأمل . . الأمل أن يتقبل الله تعالى هذا العمل . . وتلك سنة من سنن الدعاء الذى لا يتجه به المؤمن إلى ربه من فراغ . . وإنما من موقعه كعامل يبذل طاقته . . والنتيجة من بعد على الله تعالى .

بل إن اليد الخشنة القوية التى ترفع الحجر . . هى بنفسها التى تجيد الرمى سلاحا مدَّخرا نواجه به من يعادينا . . وذلك ما يشير إليه قوله ﷺ : «.. **ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا..**» .

دور الأم:

وتتحمل المرأة المؤمنة . . الأم الرءوم . . تتحمل قسوة الموقف بعد رحيل العائل . .

وها هى ذى «تسعى» وصولا إلى الماء تطفئ به ظمأ وليدها . .

لقد كانت الأم هنا تطلب لولدها : الماء . . وهو أصل الحياة . . لم تكن تبحث عن الكماليات : عن اللعبة . . أو الحلوى . . فتفسده بهذه وتلك ! . . وإنما اكتمل بها مع زوجها منهج التربية الراشد والذى كان من وراء الصدِّيق النبى . . إسماعيل .

وهى لفتة قوية إلى بعض الآباء اليوم . . والذين يشكُون من تمرد أبنائهم . . أو انحرافهم . . مع أنهم الذين صنعوا هذا الواقع الأليم بتصرفاتهم : حين أرخوا لهم من حبال التدليل . . فبعثروا ما لا . . لم يعانوا فى تحصيله . . فلم يحسوا بقيمته ودوره فى التعمير . . إلى جانب ما يهدمون من قيم التعاون والمساواة التى تربطهم بالمحاويج من زملائهم . . وما يترتب على ذلك من تقطع حبال المودة . .

أى أنهم بتدليل أولادهم يهدمون أولادهم . . قبل أن يهدموا تلك القيم العظيمة . . وهم لا يشعرون .

ثم . . كيف تنهض أمة إلا بشباب نشأ كما نشأ إسماعيل عليه السلام . . فكان راميا . . أغاظ الله به الكفار . . وما زالت حياته المباركة قصة تروى عبر آيات

القرآن الكريم.

وفى ذكرى بناء البيت.. وفى موسم الحج تتأكد حاجة الأمة إلى جيل على نفس المستوى.. مستوى شباب الأمة من سلفنا الصالح..

والذين كان للدعوة جندًا.. وفى حلوق أعدائها غصة:

وفى السلم.. وبالكلمة الطيبة: أرغموا أنوفا.. وأذلوا نفوسا..

وفى الحرب.. وبالقوة الضاربة.. أغمدوا سيوفا.. وأحنوا رءوسا..

فأذاقوا الأعداء فى الحالين.. أذاقوهم من مرارة الهزيمة كئوسا.

وعلى مستوى الفرد:

وقد كان من دعائه ﷺ: ﴿**فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم**﴾[إبراهيم: ٣٧].

ويعنى ذلك أن رحلة الحج والعمرة.. رحلة قلوب.. لا سفر أجسام.، إنها أفئدة تهوى.. من على.. مسرعة.. مدفوعة بشوق عارم.. فكان الحج هو الفريضة الوحيدة التى يتنافس فيها المتنافسون.. فيُلزم بها المسلم نفسه.. ولو لم يكن مستطيعا..

وقد يكون مدينا.. لكنه يحتال بدافع من الشوق.. فلا يستقر على حال حتى يعود إلى البيت مرة أخرى.. يعود.. بل يهوى إلى ذات المكان.. وفى نفس الزمان..

و إن فـــؤادا قادنـــى بصبابـة　　　إليك على طول الهوى لصبور

وعلى كثرة ما يهوى المرء من مواطن.. وعلى كثرة ما يحفل العمر بذكريات عزاز..

لكن أمره ودائما على ما يقول الشاعر:

قد يهـــون العمــــــر إلا لحظة　　　وتهـــون الأرض إلا موضعـــا

*****

إنزال الناس منازلهم

من دروس الدعوة البارزة فى قصة

إبراهيم عليه السلام

إنزال الناس منازلهم

وها نحن نجلى أهمية هذه القيمة التى

مكن لها الخليل عليه السلام فى القلوب

إنزال الناس منازلهم

مدخل:

في سنن أبي داود[1] عن ميمون بن أبي شبيب أن عائشة رضي الله عنها مرّ بها سائل فأعطته كسرة.

ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل فقيل لها في ذلك فقالت:

قال رسول الله ﷺ **«أنزلوا الناس منازلهم»**.

*****

---

(١) جـ٧/ ٢٦١ حديث رقم ٤٨٤٢.

[أ]

في الزحام.. تختلط الوجوه فتتداخل الملامح.. ويحتار الناظر.. فلا يستطيع أن يُحسن التصور.. ومن ثم لا يهتدى إلى الحكم الصحيح...ذلك: بأن الناس عندئذ لا يرون الأشياء بأعيانها ـ كما يقول ابن الجوزى ـ وإنما يرون الفانى على أنه باقٍ...ومن ثم.. لا يتخيلون مفارقته.. لأن عين الحسِّ مشغولة بالحاضر.. وهى لا ترى إلا المظاهر..

فإذا تعلق الأمر بالرجال والحكم لهم أو عليهم.. ازدادت القضية تعقيدا.. من حيث كانت طبيعة الإنسان عميقة.. بعيدة الأغوار.. فلا يغوص فيها ـ ولا يستخرج اللآلئ من أعماقها إلا سباح ماهر..

ومن أجل ذلك.. تشتد حاجتنا إلى الداعية الماهر.. القادر على تجلية الأمور بحكمته وفطنته.. عن طريق عملية إنزال من الخلف يضع فيها بصيرته.. من وراء أبصار الناس المحدودة.. ليُعينهم على رؤية حقيقة الأشياء.. والإنسان.. واضِعًا فى النهاية ذلك المقياس الدقيق للحكم: للإنسان.. أو على الإنسان.

وقد كان ﷺ.. ذلك الداعية العظيم.. الذى سلَّط أضواء بصيرته على واقع الحياة.. فى محاولة لإنشاء علاقات طيبة بين الناس.. علاقات تتجاوز القشرة البادية لتنفذ إلى الأعماق.. حتى تستقر هذه العلاقات.. وتتنامى مع الأيام.

أخرج البخارى ومسلم.

[عن سهل بن سعد رضى الله عنه أنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ. فقال لرجل عنده[1]:

«ما رأيك فى هذا؟» قال: رجل من أشراف الناس.. هذا والله حرىٌّ إن خطب أن يُنكح. وإن شفع أن يشفع. قال: فسكت ﷺ...

ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك فى هذا؟» فقال: يا رسول الله: هذا رجل من فقراء المسلمين: هذا حرىٌّ إن خطب ألا ينكح. وإن شفع ألا يشفع وإن قال ألا يسمع لقوله... **فقال ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».** قال الرجل: أفلا يُعطَى ـ يقصد الثانى ـ كما يُعطَى الآخر؟ ـ أى لخيْريته تلك وما دام

(١) تقول بعض الروايات إنه أبو ذر رضى الله عنه.

محبوبا من الله تعالى؟ - فقال ﷺ: «إذا أُعْطِيَ فهو أهله، وإذا صُرِفَ عنه فقد أعطى حَسَنَه».

ولاحظ هنا أن الداعية العظيم.. يرى من قومه غفلة عن المقياس الذى يزنون به أقدار الناس.. وها هو ذا يلفت انظارهم إليه..

ولكن.. كيف؟

لقد كان من الممكن أن يخطبهم آخذا بأيديهم إلى الفهم الصحيح لأقدار من حولهم نظرياً ولكنه ﷺ يبحث القضية بحثا ميدانيا.. وعلى الطبيعة.. بَحثا يكون المدعوون طرفا فيه.. لِتصل كل الأطراف إلى الحل الصحيح.. فلما سأل ﷺ عن قيمة الرجل القادم...كان الجواب معبراً أصدق التعبير عن الواقع :

فالمجيب يقرر أن الرجل فى أعين الناس شريف.. يملأ العيون مهابة.. إلى الحد الذى لا يُرَدُّ له طلب.. ولو كان الطلب زواجا أو قضاء حاجة..

يُقسم المسئول على ذلك بلفظ الجلالة مؤكدا أن هذا أمر معلوم من المجتمع بالضرورة!

فلما قَدِم الفقيرُ يتعثر فى ثيابه الرثة ومشهده الذى لا يلفت النظر.. جاءت شهادة الرجل أن هذا صفر على الشمال إلى جانب هذا الشريف.. مقرراً أيضا أن هذه حقيقة معلومة من تقاليد الناس بالضرورة.. ويلاحظ أنه لم يقسم هذه المرة على ذلك اعتمادا على أن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى تأكيد...بل إن الأمر ليصل إلى أنه بالإضافة إلى أنه مرفوض الرغبة فى الزواج والتوسط لدى الناس.. فإنه لا يُسمع لكلامه إذا تكلم.. فهو إذن كم مهمل..

وحين اتضح الواقع بكل سلبياته.. ومفارقاته.. رأيناه ﷺ ينسخ بشمس الحقيقة هذا الظلم المبين..فَقَلَبَ الميزان رأسا على عقب.. ليتبادل الرجلان المواقع.. حتى يكون الثانى هو الأشرف.. بينما تتراجع قيمة الأول.. إلى الحد الذى يَجْعل النسبة بينهما كنسبة واحد إلى المليون بل قد تزيد!

ولكن ضغط التقاليد لا يتبخر من الأدمغة سريعا.. وما تزال هناك بقية من آثارها تدافع عن نفسها فى داخل الإنسان وذلك واضح من سؤال الرجل...إذا كان الثانى كريما على الله فلِمَ لم يجعله غنيا؟

ويجىء الجواب النبوى الكريم ليقضى على البقية الباقية من الشبهات حتى تستقر الحقيقة الجديدة.. ويتمكن المقياس الجديد من القلوب.

وذلك جوابه ﷺ والذى أشار إلى أن سنة الله فى الأصفياء الأتقياء من عبادة: أنه سبحانه قد يسوق إليهم الغنى أحيانا وقد يمسكه عنهم لحكمة يعلمها.. محتفظا لهم بحقهم فى الحسنات يدخرها لهم عِوضًا عن هذا الخير المحجوب.

ويترتب على ذلك كله تجاوز النظرة العجلى.. فى الحكم للناس أو عليهم.. ليأخذ كلٌّ حظه من التكريم على أساس ما يملك من عواطف الخير.. بعيدا عن الغنى والجاه والقوة.

وعلى هذا الأساس كان يعامل ﷺ أصحابه فلكل درجات مما عملوا.

ففى إحدى الغزوات.. وفى ليلة شاتية باردة.. بلغت برودتها حدا كان الصحابى يحفر لنفسه حفرة ثم يغطى نفسه بالدرع.. قال ﷺ: **«من يحرسنا وأدعو له بدعوة؟»** فتقدم رجل فدعا له بدعوة.

قد أَعْجَبَتْ هذه الدعوة «أبا ريحانة..» فتقدم هو الآخر فدعا له بدعوة أقلَّ منها.. لماذا؟.. لأن المبادرة الأولى كانت للرجل الأول.. والذى كانت شجاعته محركا أقام أبا ريحانة من مكانه.. ومن العدل أن يكون هذا الفارق بين من مضى فور سماعه التوجيه.. وبين من جاء قراره متأخرا.

وهو نفسه ما حدث للقادة العظام فى غزوة مؤتة... فقد رأى رسول الله ﷺ الشهداء على سرر فى الجنة. ولكنه رأى فى سرير ابن رواحة ازورارا - اعوجاجا - فلما سئل فى ذلك قال:

قضيا.. وتردد!

فأخذ كل جزاءه كفاء عمله.

ولقد كان جرير بن عبد الله سيدا فى قومه.. من أجل ذلك كان ﷺ يعامله معاملة خاصة.

وكان جرير رضى الله عنه يقول: ما حجبنى ﷺ قط منذ أسلمت: أستأذِنُ. فيقول: ادخل. وما لقينى إلا وتبسم فى وجهى!

وقد يختلف جوابه ﷺ قوة ولينا طبق مركز المخاطب الاجتماعى:

فعندما قال الأقرع بن حابس: إن لى عشرة من الولد. ما قبَّلت منهم واحدا.. قال ﷺ: «من لا يرحم.. لا يُرحم».

قالها هكذا قضية عامة. ولم يواجه الرجل بها مباشرة.

ولكن لما جاءه ﷺ أعراب فقالوا: أتقبلّون صبيانكم؟ والله إنا لا نقبل منهم أحدا... فقال ﷺ:

«أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلوبكم» متفق عليه.

من ثمرات هذه القيمة:

ومن أقوال العلماء وشراح الحديث تتضح أسرار تدعيم هذه القيمة، والتى تتلخص فيما يلى:

١ ـ تجلية النماذج الطيبة والتنويه بها.

٢ ـ ثم تحريض الناس على الاقتداء بها.

٣ ـ إيجاد مقياس سليم عملى يحتكم الناس إليه.. يستبعد القوالب. ويستبقى القلوب.. وما فيها من عواطف الخير.

٤ ـ تشجيع هذه النماذج الطيبة على التنافس فى الخير ما دام المجتمع يعطيهم حقهم من التقدير.

٥ ـ الفرار من فقدان هذه المعانى وإلا ففى غياب هذه القيمة وهى [إنزال الناس منازلهم] يحس الفضلاء بالظلم فيكون منهم الغضب الظاهر أو المكتوم..

الغضب من الفاضل حين يتقدَّم عليه الخامل.. والمخلص يسبقه المنافق.. ونعوذ بالله من الخذلان.. بعد الإيمان

وللعلماء فى هذا المجال مركزهم المرموق.. نفرد له الحديث التالى:

*****

[ب]

سقى الله عهودا كانت نظرة العالم فيها.. تأديبا.. ورؤيته دواء.. وموعظته شفاء.. وكان المتعلم بين يديه: سؤاله.. تعلّم. ومراجعته: تفهّم. كان العلماء على ما قيل: نجوما.. يَهتدى بها المدلجون. وغيثا ينتجعه الظامئون. فزاد بهم صرح أمتهم ارتفاعا.. فى صحبة عزم أكيد ورأى سديد: يَبْلى الجديدان.. وهو صارم.. صقيل.. وكان التلاميذ بين أيديهم يتنافسون فى حمل حذاء الشيخ المعلِّم.. وأسعدهم من سبق إلى الحذاء.. فوضعه بين يدى معلمه.. ومن خلال هذه البيئة نبتت قيمة من أعظم القيم فى أمتنا وهى: إنزال الناس منازلهم.

لكن هذه القيمة العظيمة كغيرها من القيم لا تنشأ من فراغ:

بيد أن مجموعة من العوامل تتضافر لانضاجها.. ثم إخراجها واقعا حيّا وهى:

تشريع الأمة..

سلوك القادة..

التربية الأسرية..

[أهمية القيمة]

إذا كانت أمة الإسلام مأمورة بأن تقاتل أئمة الكفر.. قطعا لدابر الشر.. فإنها وبنفس القوة مأمورة بالحفاظ على أئمة الإسلام.. ليظلوا على الطريق منارات هدى.. وليظل بهم نهر العطاء موصولا..

ويرحم الله أيام زمان: كان العالم الذائع الصيت يخرج من بيته.. فى سفر بعيد.. لِيُسلِّم على حفيد شيخه القديم.. فقط ليسلم عليه.. تجديدا للذكرى.. وتأكيدا للاحترام..

وتأمل كيف تمر الأيام.. بل السنون.. ويبقى حب التلميذ ـ الذى صار إماما ـ كما هو.. إن لم تزده الأيام حرارة.. حين يلقى الحفيد.. بالدموع.. والأحضان فى مشهد يُرسِّخ قدر العلماء.. الذين يتربعون على عرش القلوب.. أبدا.

وفى مواقف تؤكد لك أن قرابة الدم.. إذا احتاجت إلى مودة.. فإن مودة

العلماء لا تحتاج إلى قرابة الدم. . ويكفى العلمُ رحما بين أهله.

منشأ الأهمية:

قلنا إن عناصر جامعة تصون هذه القيمة وفى مقدمتها. . بل أساسها:

أ ـ القرآن الكريم.

ب ـ والسنة المطهرة.

فى القرآن الكريم:

إنزال الناس منازلهم قيمة إسلامية. أشار إليها القرآن والسنة المطهرة بما يؤكد حفظ أقدار الناس ممن له سابقة فى الفضل. أو شرف فى النسب أو العلم. أو الخدمة العامة. . فلا يُسوًّى بين عامل وخامل. ولا بين عالم وجاهل:

قال تعالى: ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الشعراء: ١١٥].

قال سبحانه: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً**﴾[النساء: ٩٥].

وقال عز وجل: ﴿ **لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾[الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[الجاثية: ٢٣].

وقال ﷺ «**أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم**»[1].

---

(١) رواه أبو داود فى السنن: ٤/ ٢٣٢.

وبسط رداءه لقيس بن عاصم المنقرى وقال «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[1].

ولقد أعطى يوم حنين كثيرا من المؤلفة قلوبهم أكثر مما أعطى كثيرا من فضلاء المؤمنين.

ثم مدح كل قوم بما هم فيه. ودعا لكل واحد بما يستحقه. وفضّل كلاّ من أصحابه بما استوجبه لما هو أهل له: «فبالله قدوة، وفى رسوله أسوة»[2].

وعلى دربه سار الصحابة رضوان الله عليهم:

كتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى:

[أما بعد: فإنه لم يزل للناس وجوه ـ يذكرُّون بحوائج الناس فأكرم وجوه الناس قبلك.. فحسب المرء الضعيف المسلم أن يُنصف فى العدل والقسْم][3].

وفى هذا المعنى قال الشاعر:

إذا كنتمـو للناس أهـــل سياسـة ... فَسُوسو كـرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يَصلحوا ... على الذل.. إن الذل يصلـح للنذلِ
وكونوا لأوســاط الرجــال كمازج ... ذعافا. وماذيّا كأحلى جنى النحل[4]
ولِينُوا لهـــم طورا ببســط كـرامة ... وخلوهمو طورا قياما علـى رجـل

مضاعفات تجاهل أقدار الناس:

يقول الماوردى منبها إلى ضرورة أن يعرف الرئيس أقدار الناس: [.. فإن ذلك مما يحرضهم على التسابق فى طلب الخير. والتباهى فى نَيْل الفضل فيما هم فيه. فيكون ذلك سببا فى انتظام أمورهم. واتساق أحوالهم. وطيبة أنفسهم. وإذا عوملوا بخلاف ذلك أدّاهم إلى الحنق على السلطان. وإضمار السوء له.

لأن من رأى فى نفسه فضلا من شرف أو علم أو نجدة. أو مجد. أو بلاء: أو كفاية.. فَجُهِل حقه. وحرم منه ما يستأهله ويستحقه. أحَفَظَه ذلك إحفاظا. وأحقده إحقادا. وخيل إليه أنه قد مُنِع حقا واجبا ودَيْنًا لازما. وظلم ظلما عظيما. ومن قدّر فى نفسه ذلك اختار فى دفعه عنها إن وجد إلى ذلك سبيلا. وإن لم يجد كانت طاعته طاعة مكره مجبور. ومضطهد مقهور. لا طاعة مجد مختار][5].

---

(١) ابن ماجة فى سننه: ٢/ ١٢٢٣ وأحمد فى مسنده: ٦/ ١٨١.
(٢) الماوردى/ ٣٧٤، ٣٧٥.
(٣) تاريخ عمر لابن الجوزى ٣٦.
(٤) الذعاف ـ بالذال ـ السم يقتل لساعته والماذى: العسل الأبيض الرقيق.
(٥) نصيحة الملوك/ ٣٧٣

من شواهد السنة المطهرة:

وفى السنه المطهرة شواهد على أهمية هذه القيمة.. بدت فى وفائه ﷺ لخديجة رضى الله عنها.. والتى بقيت قيمتها فى قلبه كما هى.. وحتى بعد وفاتها:

روى ابن عبد البر عن ابن إسحاق: أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله..وصدق محمدا ﷺ. فيما جاء به عبد ربه وآزره على أمره...فكان لا يسمع من المشركين شيئا يكرهه: من رَدٍّ عليه..وتكذيبٍ له إلا فرَّج الله عنه بها. تُثبِّتُه وتصدقه. وتخفف عنه. وتهوِّن عليه ما يلقى من قومه[1].

ثم ماتت خديجة رضى الله عنها.. ولكن الموت لم يقطع صلته بها.. بل بقيت بالوفاء لها فى نفس منزلتها.. رغم وجود عائشة زوجا له ﷺ. على ما كانت عليه من علم. وما كان لها لدى الرسول ﷺ من تقدير.. وما كان لأبيها من قدم صدق فى الإسلام..

وعندما غارت منها عائشة رضى الله عنها.. كان ذلك فرصة أظْهرت إلى أى حد كان تقديره ﷺ لها.

عن عائشة رضى الله عنها قالت:ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ. ما غرت على خديجة،وما رأيتها، ولكن كان النبى يُكثر ذكرها وربما ذبح الشاة. ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة. فربما قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة؟!..فيقول: «إنها كانت وكانت.. وكان لى منها ولد»[2].

وربما وصلت الغيرة بها حدا يوشك أن يكون تعريضا بخديجة رضى الله عنها ـ وعندئذ يغضب الرسول ﷺ غضبا يفرض على عائشة رضى الله عنها أن تُسكِت دافع الغيره فى قلبها.. وإلى الأبد.. ابتغاء مرضاة الله تعالى.. ورسوله:

عن عائشة رضى الله عنها قالت:كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة. فيحسن الثناء عليها...فذكرها يوما من الأيام. فأخذتنى الغيرة فقلت:هل كانت إلا عجوزا قد أبدلك الله خيرا منها؟ فغضب حتى اهتز مُقَدَّمُ شعره من الغضب. ثم قال: « لا والله. ما أبدلنى الله خيرا منها:آمنت بى إذ

---

(1) الاستيعاب: حاشية الإصابة: ٤/ ٢٨٣.

(2) رواه البخارى.

كفر الناس.وصدقتنى إذ كذبنى الناس.وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس.ورزقنى الله منها أولادا إذ حرمنى أولاد النساء».

قالت عائشة: فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبدا[1].

فانظر كيف استبدت الغيرة بعائشة رضى الله عنها حتى سيطرت عليها.. وأخذتها على حد تعبيرها.

ومن شدتها أنها سولت لها: أنَّها أصغر.. فهى أفضل..

ويجيئها الرد العنيف المسكت الذى رَدَّ ادعاءها بقوله.. لا.. والمؤكد باليمين أن الله تعالى لم يُبْدله خيرا منها..

وفَهِمت رضى الله عنها الدرس.. وقررت بصفة نهائية وحاسمه ألا تعود لمثل ما قالت أبدا..

على مستوى القيادة:

ما زلت أذكر ذلك الرجل الذى قيل له: ما هى وظيفتك.. فقال: أعمل بوزارة الأوقاف!.. حتى لا يعرف السائل أنه مؤذن؟!

وقلت: لقد حقّر الرجل عظيما.. حين عقد الخجلُ - ولا أقول الحياء - لسانه.. فدلّس على السائل.. فلعله بالتدليس يظنه إماما بالأوقاف!..

ونسى أن عمر رضى الله عنه كان فى طليعة الذين رفعوا من منزلة المؤذن حتى قال يوماً: لولا أعباءُ الخلافة.. لكنت مؤذنا!

فهل رأيت رجلا فى هذا الزمان يفضل وظيفة المؤذن على رئاسة الدولة؟

ونعما قال أمير المؤمنين: فالمؤذنون أطول الناس أعناقا فى الآخرة.

ذلك بأنهم دعاة.. ودعاة إلى التوحيد.. ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله؟

وربما غابت هذه الحقيقة يوما.. حقيقةُ إنزال الناس منازلهم. .ولكن الخليفة - وهو حارسها وراعيها - ينتفض فى دفاع عنها وتنويه بها:

ذات يوم. .خلف أميرُ مكة رجلا من الموالى عليها: نافع بن الحارث. .وكأنما استبعد عمر أن يصبح عبد الأمس سيدا فقال للأمير: استخلفت عليهم مولى؟

---

(١) الاستيعاب: ٤/ ١٨٤.

فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله تعالى.. عالم بالفرائض.. واعظ بالمسجد.. فقال عمر وقد عادت إليه سجيته فى تقدير الناس: أمَا إن نبيكم قد قال:

«إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين»[1].

وما كان من الخليفة إلا الاقتناع برأى المحافظ الذى كان من صميم مسئولياته أن يضع الرجل فى موقعه.. ولو كان عبدا حبشيا.. ذلك بأن جمال الظاهر لن يصدِّر الجمال إلى الباطن.. ولكن جمال الباطن بالتقوى هو الذى يجعل من الإنسان.. كائنا جميلا: لا فى قسماته.. ولكن فى صفاته.

من ثمرات هذه القيمة:

وقد أثمرت هذه القيمة ثمراتها.. فَسَمتْ بالمسلم مواهبه.. لا نَسَبُه.. وتقدم عبيد الأمس ليأخذوا مكانهم المرموق فى كل مجال من مجالات الحياة:

قال ابن الصلاح فى رحلته: روينا عنِ الزهرى أنه قال: قدمت على عبد الملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهرى؟ قلت: من مكة. قال: فمن خلَّفت بها يسود أهلها؟

قلت: عطاء بن أبى رباح. قال: فمن العرب أم من الموالى؟ - غير العرب -

قلت: من الموالى.. سادهم بالديانة والرواية.

قال: فمن يسود أهل اليمن: قلت: طاووس بن كيسان. قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلت: من الموالى.

قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبى حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلت: من الموالى.

قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول الدمشقى.. قال: فمن العرب أم من الموالى. قلت: من الموالى. وهو عبد نوبىّ أسود. أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران. قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلت من الموالى.

---

(١) رواه مسلم

قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قلت. الضحاك بن مزاحم. قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلت: من الموالى.

قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن بن أبى الحسن. قال: من العرب أم من الموالى؟ قلت: من الموالى.

قال: ويلك!! فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: ابراهيم النخعى.

قال: من العرب أم من الموالى؟ قلت: من العرب!!

قال: يا زهرى: فرّجت عنى!

والله لتسودن الموالى على العرب حتى يُخطب لها على المنابر. وإن العرب تحتها:

إن أهل الديانة والرواية ينبغى أن يسودوا الناس. قلت: يا أمير المؤمنين: إنما هو أمر الله ودينه: فمن حفظه ساد ومن ضيعه سقط).

لقد كانت إجابة الزهرى على غير ما كان يتوقع عبد الملك بن مروان.. وما زال يسأل الزهرى متلهفا.. مدفوعا بالدم العربى الأبى الذى يجرى فى عروقه.. ثم راعه أن يجد عبيد الأمس - بالتقوى - طلائع الركب المؤمن.. وعلى مستوى العالم الإسلامى حينئذ!

ولم تهدأ نفسه إلا بعد أن رأى الكوفة.. وفقط.. تحت السيادة العربية.. فكان فى ذلك راحة لنفسه!

ولكن هذه النزعة العاطفية لم تمنع الرجل من الاعتراف بالحقيقة التى تفرض نفها وهى: أن العاقبة للتقوى..

هذه التقوى التى يتزين بها قوم.. فيسودون بينما تسترخى أيدى الكسالى فلا تستمسك بحبلها.. وإذن فمكانهم.. هناك خلف الركب.. الذى لا يتصدره إلا الصابرون.

دور الأسرة:

ولقد كان للأسرة المسلمة دورها فى التمكين لهذه القيمة: إنزال الناس منازلهم:

جاء يوسف القاضى، ومعه ابنه عمر إلى الإمام إبراهيم الحربى، فقال له القاضى: يا أبا إسحاق: لو جئناك على مقدار واجب حقك.. لكانت أوقاتنا كلها عندك، فقال الحربى: ليس كل غيبة جفوة، ولا كل لقاء مودة وإنما هو تقارب القلوب.

ويلفت النظر هنا أن المسافة لم تكن شاسعة بين القاضى.. والإمام الحربى.. ولكنها كانت مدرسة واحدة.. فيها المبتدئ.. ومن هو على وشك التخرج.. ومع ذلك.. وجدنا أحدهم يكاد ينسى موقعه.. وجهوده.. ليمنح زميله الفضل كله..

ولا شك أن لهذا الاحترام المتبادل أثره على أفراد الأسرة:

فهذا عمر ابن القاضى يوسف يحضر مع أبيه ذلك اللقاء.. فانعكس على قلبه بركة منه.. وها هو ذا يرى الإمام الحربى فى أحد المجالس.. ولم يكد يراه حتى بادر إلى نعله.. فمسحها من الغبار!!

إنه يمسح النعل.. ولا يمسح الثوب..

وعلى الملأ.. من القوم.. ثم فى صحبة مشاعر الاعتزاز بهذه المبادرة.. التى سوف تظل علامة على الطريق تؤكد.. كيف كان العلماء من سلفنا الصالح على هذا النحو من التأليف والتصنيف.. حينما وجدوا من حولهم يقدرونهم قدرهم!.

[من آثار هذه التربية]

وإذا كان التشريع.. وكانت الصفوة.. والأسرة.. مجتمعة على الوفاء لقيمة «إنزال الناس منازلهم». وبخاصة العلماء.. فلا تعجب إذا وجدت الناس يسيرون على ذات الطريق: تقديرا لكل كفاءة: علمية أو عملية..

كان الشافعى رحمه الله يسير فى سوق الحذائين.. فسقط سوطه.. فوثب غلام.. ومسحه.. بكمه.. وناوله إياه.. فأعطاه الشافعى سبعة دنانير!

إن العالم هنا: رجل عادى.. بسيط.. يأكل الطعام.. ويمشى فى الأسواق.. وفى هذا الحى الشعبى يسقط سيفه.. وكان الظن أن ينحنى ليلتقطه.. ثم يمضى..

والمتوقع - غالبا - فى مثل هذا الحى الشعبى: أن تسمع ضجيجا ولغطًا.. قلَّ أن يرى فيه عالمٌ مثل هذا التقدير.. فى زحام الحياة. وتدافع المناكب ولكن الذى

حدث يستلفت النظر:

فالذى التقط السوط: غلام.. صغير..

ثم إن أحدا لم يطلب منه أن يفعل ما فعل.. وإن لم يفعل.. فلا تثريب عليه.. لكنه: لم يلتقطه فقط.. وإنما وثب.. هجم.. قبل أن يسبقه أحد إلى هذا الشرف!

ولم يكتف بهذا.. ولكنه مسح السوط.. لا بقطعة من القماش.. وإنما بكمّه هو شخصيا.. ثم يناوله إياه فى حفاوة وابتهاج.

وعالم كالإمام الشافعى لا شك أنه يدرك أبعاد الموقف.. ودلالته.. ولقد كانت مكافأته الغلام جزيلة وهى: سبعة دنانير كاملة.. يعبر بها الشافعى أولا عن غريزة الكرم فيه.. والتى سولت له يوما أن يبيع حلىّ زوجته. بل وابنته.. وفاء لطبيعة السخاء فيه!

ولكن للقضية وجها آخر هو: تقدير هذه النزعة الشبابية.. تقديرا يستثمر به عاطفة تقدير العلماء لدى الشباب..

وقد يقول قائل: وأين الشافعى اليوم.. لنفعل معه مثلما فعل هذا الغلام.. لأنا نقول: وأين هذا الغلام اليوم؟!

لقد التقط الغلام سوطه.. ولكن البعض قد يخنقون صوته!

وقد يسقط العالم يوما فيزل.. فتكثر السكاكين.. بل قد نسقطه نحن من حسابنا.. وباختيارنا.

والأجدر هنا أن يقال: ابدأ بنفسك.. أد واجب الاحترام أولا.. لتأخذ حقك فى التقدير ثانيا!

ولندخل فى حسابنا أن إبليس سأله جنده يوما: لماذا تفرح بموت العالم، فوق فرحَك بموت العابد؟ فمشى بهم إلى عابد فسأله وهم ينظرون: هل يستطيع أن يضع الله الدنيا فى بيضة؟ فقال العابد: لا أدرى.. ولما سأل العالم نفس السؤال قال: إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

فقال لهم إبليس: هل رأيتم خطورة العالم؟

ويكفى هذا شهادة تقدير لعلمائنا.. حتى نفوّت غرض إبليس اللعين!

العلماء على مستوى المسئولية:

وإذا كان إنزال الناس منازلهم تشريعا.. وكان قادة الأمة أوفياء له.. فى نفس الوقت الذى صار المبدأ فى الأسرة شعارا ودثارا..

إذا كان الأمر كذلك.. فقد بقى أن نعرف موقف العلماء أنفسهم.. وفيما بينهم وهل كانوا عند حسن الظن بهم.. يُنزلون الأئمة منازلهم

لقد كان العلماء على مستوى المسئولية.. أوفياء لهذا المبدأ القويم..

وقد ترى عالما يمدحه تلاميذه بما هو فيه.. مفضلين إياه على زميله وسرعان ما يهب مدافعًا عن أخيه فى العلم.. وبِظَهْر الغيب.. ناسيا حظوظ نفسه.. وإذا كان حب الثناء طبيعة الإنسان كما يقول الشاعر:

يهوى الثناء مبرزو مقصر　　　حب الثناء طبيعة الإنسان

فإن العالم الوفى ليكبت صوت هذه الطبيعة رافضا المديح على حساب زميله. راجعا بالفضل كله إليه.

وفى تاريخ العلماء شواهد كثيرة:

قال الإمام البخارى رحمه الله: ذاكرنى أصحاب عمرو بن على حديثا.. فقلت: لا أعرفه فسرُّوا بذلك. ثم ساروا إلى عمر بن على فقالوا له: ذاكرنا البخارى بحديث كذا.. فلم يعرفه.. فقال عمرو: حديث لايعرفه محمد بن إسماعيل البخارى.. ليس بحديث!![1].

إنه لشىء طبيعى أن يسر التلاميذ بإمامة شيخهم.. وهو فى نفس الوقت مستوى من الوفاء يحمدون عليه.

لكن السرور عند ما يكون على حساب قيادة إسلامية أخرى يكون مرفوضا.. لأن الأئمة إنما يجاهدون لخدمة الحقيقة التى هى غايتهم جميعا.. وما جار على أحد المثلين يجوز على الآخر.. والإزراء بالأستاذ قد يحمل تلاميذه أيضا على التمحل نيلاً من منافسه.. وعندئذ يتأخر وصولنا إلى الحقيقة فى هذا الحد من التنافس المحموم.. الذى يجعل القضية.. صراع مذاهب.. يوردنا المعاطب.

ولم يكتف.. عمرو بن على برد وجهة نظر تلاميذه بالحسنى.. راجعا

(١) ذكره الخطيب البغدادى

بالفضل كله للإمام البخارى.. وينتهى الدرس..! لكن الشيخ إبراهيم الحربى كان مع تلاميذه صارما فى رده قاسيا فى حكمه. فقد علم يوما أن تلاميذه فضلوه على الإمام أحمد. فجمعهم وسألهم، فلما تحقق من قولهم.. اتخذ القرار الصعب وهو:

أولا: طردهم من مجلسه.

وثانيا: أقسم ألا يدرس لهم بعد ذلك أبدا!!

ولئن خرج الطلاب يكون من هول الفاجعة.. إلا أنهم خرجوا بدرس بليغ فى إنزال الناس منازلهم.. وسوف يكون للدرس أثر فى حياتهم العملية.

وهو الدرس الذى تواصى العلماء على إحيائه:

أراد تلميذ أن يغمز أبا حنيفة فى مجلس ابن المبارك ـ رحم الله الجميع ـ فقال له على الفور:

اسكت!: والله لو رأيت أبا حنيفة لرأيت عقلا ونبلاً.

ولهذا التوجيه ثمرته:

فالأستاذ هنا يوجه التلاميذ المفتونين به إلى الإفادة من مصدر آخر من مصادر الفقه حتى لا يصيروا عيالا على أستاذهم.

وعندئذ تجد العقول ألوانًا من الفقه الإسلامى فى تجلى جوانب الحقيقة

وهذا ما يشير إليه يحيى القطان فى قوله عن أبى حنيفة ـ وهو ممن يخالفونه فى الرأى:

[إذا استحسنا من قوله الشيء أخذنا به]

وهو المعنى الذى صرح به الإمام الشافعى بما يلفت نظر تلاميذه إلى الإفادة من أبى حنيفة.. وذلك قوله:

[الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة]

وقوله:

[لو جاء أبو حنيفة إلى أساطينكم هذه [أى سوارى المسجد] نقايسكم على أنها

خشب.. لظننتم أنها خشب][1].

لقد كان هناك تنافس بين الأقران بحكم الطبيعة البشرية.. وكان هنالك أيضا تلاميذ مخلصون.. ومتحمسون لمشايخهم.

ولكن يقظة العلماء الأوفياء.. المنصفين لم تكتف برد موجة الحماس.. لكنها تستثمر الظاهرة.. لصالح التلاميذ أنفسهم.. حتى تتسع مداركهم.. ويستبحر علمهم.. ليصيروا امتدادا لهم بعد موتهم لا صورة مكررة لهم..

وإنها لرخيصة تلك اللحظة التى يستسلم فيها المرء للمديح والإطراء.. لكن البقاء للأصلح دائما..

والأصلح هنا: تجاوز لحظة الضعف هذه.. ليبقى الفقه مرفوع اللواء.. وبهذه الروح سيبقى فقه الأمة مزدهرا..

ولولاها.. لا ندثر.. ولهدم العلماء بعضهم بعضا:

وإنك لتعجب من عالم كالإمام الشافعى: الذى أنصف أبا حنيفة يُنصف الإمام أحمد من نفسه أيضا.. فقد كان يزوره فى بيته..

وقيل له يوما: ما سر تزاورك مع الإمام أحمد:

فما كان جوابه إلا أن قال: قالوا يزورك أحمد وتزورهقلت: الفضائل لا تفارق منزله إن زارنى فبفضله أو زرته فلفضله

فالفضل فى الحالين له!!

أما بعد

فسوف يبقى بيت النبوة مصدر هذه القيمة العظيمة:

ورضى الله عنه العباس حين سئل: أنت أكبر أو رسول الله ﷺ قال: رسول الله أكبر منى وولدت قبله[2].

وربما تأثر ﷺ بهذا المنطق من عمه فكان يقول له: «**يا عماه: أنت أكبر منى**»!! فيقول العباس: [أنا أسن ورسول الله أكبر]!![3].

يرد العباس أن الفاصل بينى وبينك فاصل زمنى فقط.. فأنا أسنّ.. فهى أيام

---

(١) راجع فى هذه النقول: الانتقاء: ١٤٧.   (٢، ٣) مختصر تاريخ دمشق: ١١/٢٢٦.

وشهور.. وليست درجات فى الفضل ذَهَبْتَ بها كلها.

وتأمل أدب العباس العالى حتى وهو يذكر أقدميته فى الميلاد.. لم يقل أسن.. منك.. بما يشعر فى الجملة أفضلية ما.. وإنما فقط: أنا.. أسن!! ولم يقل.. منك..!؟

إن فى ذلك لعبرة للمسلمين اليوم.. حتى يأخذوا سمتهم نحو قيمة عظمى.. لو حافظوا عليها.. لحفظوا الدعوة.. التى تستعلن قوية حيوية فى علماء يجتهدون.. ناصحين.. وفى شباب يتقبلون.. ويحبون الناصحين.

قال ابن الجوزى فى «صفوة الصفوة»:

[أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأصحابه يوما: تمنوا. فقال رجل: أتمنى لو أن الدار مملوءة ذهبا، أنفقه فى سبيل الله عز وجل.

وفى رواية قال آخر:

أتمنى أن تكون هذه الدار مملوءة سلاحا: أجاهد به فى سبيل الله.

فقال عمر: تمنَّوا!

فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين!

فقال عمر: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةٌ رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح]

تمهيد

الأمر بالفضائل المجردة من مثل: الأمانة.. والسخاء.. والشجاعة أسلوب من أساليب الدعوة إلى الخير له آثاره لا شك فى عالم الواقع.

ولكن إبرازها ممثلة فى رجل.. نراه.. نحس به.. أسلوب أقوى تأثيرا.. لأنه أصدق تعبيرا عن هذه الفضائل..

ذلك بأن الحديث المجرد: درس علمى.. والدرس العلمى تتفاوت العقول فى فهمه.. ولكن مشهد القدوة: يستوى الجميع فى رؤيته، والانفعال به.

وذلك ما يتبادر إلى الذهن حيال هذا المشهد.. ولكن الوقفة المتأنية سوف تضيف إلى ذلك دروسا أخرى.. نحاول تجليتها فيما يلى:

١ ـ إنه مجلس فى دار.. وليس على جانبى الطريق..

وإذن فهو مهيأ للحديث المبارك المفيد.. بعيدا عن مشاغل الطريق.. وعثراته.. ومغرياته.

٢ - ثم إنه مجلس له كبير: والد.. داعية.. أستاذ.. يرشد ويوجه والكل من حوله طائعون..

كل قرية كل تجمع بشرى لابد أن تكون له قيادة مسئولة.. فإذا انعكست الآية فتصدر الحديث.. ضاع من المجلس علم كثير.

والكبير هنا كبير بخُلقُه.. وعلمه.. وخبرته.. إذن فالمجلس فى يد أمينة.. وفوق الأمانة قدرة على إدارة الحوار.. الواصلِ بالجميع إلى ما يحقق مصلحة الجميع.

٣ - وآية هذه القدوة أنه بدأ بالسؤال.. والعادة أن يكون الرائد مسئولا.. وهو ينتزع تلاميذه بالسؤال من دوامة الأحلام.. أحلام اليقظة.. أو من ركود الملال.. شاغلا للنفوس بالحق قبل أن تُشغل بالباطل.. وعلى أى حال كان السؤال كجسم ألقيته فى بحيرة ساكنة.. فتحركت موجات: موجة وراء أخرى.. أمنية .. على أثر أمنية. .والأمانى العذاب هنا.. وإن اختلفت ظاهرا.. إلا أنها فى النهاية تشكل بحرا واحدا.

٤ - وعمر رضى الله عنه هنا حريص على الوقت أن يذهب هذرا أو هدرا:

لقد أعطانا الله تعالى الوقت بالتساوى: فيومى.. ويومك: أربع وعشرون ساعة.. .فلا فضل لأحدنا على الآخر من هذه الحيثية.

وإذا كانت الأشياء تتفاضل بألوانها. وطعومها وروائحتها.. فإن أيامنا بلا طعم.. ولا لون.. ولا رائحة.

وإذن.. فبم تتفاضل؟

إنها لتتفاضل بما نحدثه فيها من أعمال تجعل لها قيمة.

وهكذا يعلمنا الرائد كيف نستثمر الوقت.. وخاصة فى مجال الشباب.. وقد أثمرت هذه التربية ثمراتها اليانعات.. المباركات.. فكان الإحساس بقيمة الوقت شعار الصالحين:

ومنهم ذلك الرجل الذى استوقفه صديقه فى الطريق. .فلم يقف له.. فلما

أنكر عليه ذلك.. قال له:

قبل أن تستوقفنى.. أمسك الشمس أوَّلا

٥ ـ ورئيس المجلس ليس مولعا بالكلام.. وإنما يطالب المجلس بمزيد من الآمال.. تاركا للحاضرين فرصة الحديث.. لتتضح كل زوايا القضية.. وذلك قوله بعد أن تمنوا؛.. تمنَّوا!

فلما وقفت بهم آمالهم على ما ذكروا تقدم فأعلن أمنيته العزيزة الراغبة فى رجال من أمثال أبى عبيدة رضى الله عنه.. فعلَّق هممهم بمهمات الأمور.

٦ ـ ومع هذا فهو درس من دروس الحب ... حب القيادات المؤمنة فى الأمة والتنويه بها.

وقد يخطئ بعض الناس حين يربون تلاميذهم على حبهم. لكن على أنقاض الآخرين.. زاعمين أن فوزهم بحب التلاميذ لا يتم إلا بكراهية الآخرين؟!

وقد يكون لهؤلاء الآخرين قدم صدق فى مجالات العلم والخدمة العامة.

ولعمرى.. إنه لدرس مفيد يجعل من رابطة الحب واشجة تجمع الكل فى حزمة واحدة.. أو تجعل منهم حلقة لا يُدرى أين طرفاها.. وعمر نفسه رضى الله عنه جدير بهذا الدرس. وهو الذى بلغ المنتهى فى التنويه بالرجال الصالحين فى مثل قوله: بئس المُقامِ بأرض.. ليس فيها علىّ.

وما أجمل ما قيل عن الحب كعاطفة شريفة عفيفة:

الحب شىء دائم خالد.. وقد يتغير الإحساس وتتغير زاوية الرؤية.. ولكن الجوهر يبقى على حاله.. وهناك دائما فرق بين الإنسان قبل أن يحب.. وبعد أن يحب، وهو فارق يشبه مصباحا لم يشتعل بالضوء بعد.. ومصباحا ثم اشتعاله... إن المصباح كان هنا قبل إضاءته.. ولكنه كان مطويا فى الظلمة. أما الآن: فهو يسكب شعاعه فى المكان وينيره.

وهذا ما يحدث لقلب الإنسان حين يحب.

إنه يضىء داخل الإنسان. ويضىء خارجه ويكشف له عن بقية الكائنات]أ. هـ

٧ ـ وفى الموقف معنى الأخوة الجامعة بين الدعاة حين يرفع الداعية من قيمة زميله.. رفعا لاينقص من قدره.. بل إنه فى صالح الدعوة التى تتراءى فى

شخص رجالها قيمة خيرة.. يلتقى فى ظلها الدعاة وحدة متآلفة.. بل متألقة.. فى زمان يتكلف فيه أعداؤها ليكون متآلفين.

وصحيح أن الدعاة قد يختلفون.. لأن زوايا رؤية الحق متعددة.. فلا بد أن يختلف الرأى اختلافا يعنى تنوع الزهور التى تشكل ـ مع اختلاف ألوانها ـ طاقة واحدة!

٨ ـ ولاحظ أخيرا أن عمر رضى الله عنه لم يفرض رأيه ابتداء.. وكان يمكنه ذلك.. لكنه يفتح بالسؤال باب الحوار الذى يثمر فى النهاية أغلى ما ضُمَّت عليه عقولٌ متعددة المواهب.. كاشفة باجتماعها عن كل الزوايا.. والخبايا!.

وهذا هو موقف المربى الداعية.. فماذا كان رد الفعل هناك لدى المدعويين؟

١ ـ لقد أطاع الطلاب الأمر.. وشرعوا يجيبون.. وكشفت أمانيهم عن آمال سماوية لا أرضية.. جماعية.. وليست فردية.. أخروية.. وليست دنيوية.

وهى فى طبيعتها تجسد اتجاه الداعية الإسلامى الذى يعيش الدعوة.. بكل كيانه.. ويتجه فى خدمتها اتجاها بناء.. يرفض الهدم.. والعنف.. مؤثرا فى السلم أن يكون مصلحا اجتماعيا مسخرا ماله فى إسعاد أمته.. ورفعة دينه..

وفى الحرب.. يكون جنديا يواجه بسلاحه أعداء الدين.. ضنينا بطاقته أن تكون عنفا يبدد شباب أمته.. مدخرا إياها وقودا يكسر به غرور أعداء دينه.

٢ ـ ونتعلم على أيدى القوم.. كيف تتجه بنا آمالنا.

فإذا كان جميلا أن تكون غنيا.. وأن تكون قويا..فأجمل منه: أن تكون الثروة فى خدمة المجتمع.. وأن تكون القوة سلاحا فى وجه أعداء الدين.

وفى هذا كان يتنافس المتنافسون من سلفنا الصالح:

فلم يكن تنافسهم فى جمع المال وزيادة الرصيد وإنما فى إنفاقه فى وجوه الخير..

ذلك بأن المال نعمة.. ولن يكون كذلك حتى نحقق به ما خلق من أجله: بناء مستشفى أو مدرسة.. أو تسوية طريق.

وإذا كانوا يقولون: ليس العلم أن تعرف المجهول.. وإنما أن تستفيد بما تعرف..

فإننا نقول: ليس الغنى عن كثرة العرض.. وليس هو فى مجرد الثروة وإنما

النعمة فيه هو التوفيق فى الإعطاء.. بعد نعمة الإيتاء..

وعندما تمنى الصحابى الجليل أن يمتلك ترسانة عسكرية.. فلكى تكون شوكة فى حلوق أعدائنا.. فى سبيل الله...فالسلاح فى صدور الغادرين.. لا فى ظهور المسلمين لأنه فى سبيل الله.

٣ ـ ومعنى ذلك أن غريزة التملك وغريزة حب الحياة كلتيهما.. تسيران فى الاتجاه الصحيح.

أ ـ فغريزة التملك هنا لا تطلب المال بطرا ورئاء الناس.. ولكنها تطلبه بناء وتعميرا كما أن غريزة حب الحياة. لاتخنس طلبا للراحة والأمان. بيد أن الآمال الكبار تحملها على جناحين مستشعرة أجمل لحظات العمر حين تَهَبُ الحياة.. فتوهب لها الحياة.

٤ ـ ويأخذ عمر رضى الله عنه الخيط من الصحابى.. ليواصل بهم التحليق إلى غايات أعلى:

فهو يريد الرجل.. القدوة..القدوة الماثلة. الحافلة بالقيم...قيم الشجاعة.. والسخاء.. والتجرد.. والأمانة ممثلة فى أبى عبيدة..

إنه يريد الرجل القادر على كسب المال.. الراغب فى إنفاقه كما ينبغى.. ثم يتطلع إلى الفارس القادر على حمل السلاح بقوة.. وإدارة المعركة بنجاح.

وإلا فما أكثر الأموال التى أذلت أعناق الرجال..وما أكثر السلاح المرصود لتمزيق الأمم.. وتفريق الشمل..

٥ ـ وقد نجح الرائد الداعية فى إشعال رغبة القوم إلى تملى هذه القدوة والسير على دربها..

وكذلك يفعل المصلحون.. المصلحون الذين يعملون فى صمت..وبلا ضوضاء.. مدركين إلى أى حد كان الوقت.. لا من الذهب.. ولكن أغلى من الذهب.. فاستثمروا المجالس لصالح الدعوة..

وقد يُضيع أحدنا وقته بمنتهى الاستهتار.. وبلا إحساس بقيمة ما نبدده من عمرنا..

ورحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدَّوها إلى من ائتمنهم عليها..ثم راحوا.. فى الخالدين.

من فقه السنة .. فى تكريم الإنسان

عاد الفتى الأنصارى من بدر يَزِينُ جبينه إكليل النصر . . وفى غمرة البهجة بالنصر المبين . . غلبه الحماس فسخر من قريش ومن قوتها . . مزهوا بقوة المسلمين الذين لم يجدوا لهم فى الحرب أكفاء . .

فما كان منه ﷺ إلا أن لقّنه درسا فى إنزال الناس منازلهم مهما كانت عقائدهم . . وأنه إذا كان قد حقق بالحرب نصرا . . فيجب أن يحقق بالحب نصرا آخر على ساحة النفس التى يجب عليها أن تصل رحمها . . وأن تقدرها قدرها . .

وعلى مشاعر الانتقام أن تتراجع . . لتستيقظ مشاعر الإشفاق على قوم إذا أساءوا اليوم. فلعلهم أن يتوبوا غدا.

عن عدى بن حاتم قال: كنت قاعدا عند النبى ﷺ حين جاء من بدر فقال رجل من الأنصار: وهل لقينا إلا عجائز كالجُزُر المعقَّلة فنحرناها؟!

فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى رأيته كأنه تفقأ فيه حب الرمان [1] ثم قال:

«يا ابن أخي: لا تقل ذلك.. أولئك الملأ الأكبر من قريش.. أما لو رأيتهم فى مجالسهم بمكة هِبْتهم».

فوالله لأتيت مكة فرأيتهم قعدوا فى المسجد فى مجالسهم. فما قدرت أن أسلم عليهم من هيبتهم.

فذكرت قول رسول الله ﷺ: **«لو رأيتهم فى مجالسهم لهبتهم»**. قال عدى بن حاتم: فقال رسول الله ﷺ: **« يا معشر الناس: أحبوا قريشا.. من أحب قريشا فقد أحبنى. ومن أبغض قريشا فقد أبغضنى»**.

إن الله حبب إلىّ قومى: فلا أتعجل لهم نقمة. ولا أستكثر لهم نعمة. اللهم إنك أذقت أول قريش نكالا[2] فاذق آخرها نوالا.

إن الله تعالى علم ما فى قلبى من حبى لقومى فسرّنى فيهم. قال عز وجل: **﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾** فجعل الذكر والشرف لقومى فى كتابه فقال: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾** يعنى قومى.

---

(١) كناية عن حمرة الوجه.

(٢) عذابا.

فالحمد لله الذى جعل الصدِّيق من قومى والشهيد من قومى والأئمة من قومى.

إن الله قَلَّب العباد ظهرا لبطن فكان خير العرب قريش. وهى الشجرة المباركة التى قال الله عز وجل فى كتابه: ﴿**مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء**﴾ يقول: الشرف الذى شرفهم الله به: الإسلام الذى هداهم له. وجعلهم أهله.

ثم أنزل فيهم سورة من كتابه محكمة: ﴿**لإيلاف قريش..**﴾ قال عدى بن حاتم: «ما رأيت رسول الله ﷺ ذُكِرت عنده قريش بخير قط إلا سرَّه.. يتبين السرور فى وجهه. وكان يتلو هذه الآية ﴿**وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون**﴾ »[1].

والموقف غنى عن التعليق.. لكننا فقط نذكر بما تضمنه من رحابة صدر الإسلام.. إلى جانب التحذير المتجدد عبر القرون من التجاور إلى الحد الذى ينسينا واجباتنا فى قضية جوهرية هى قضية الرحم. رحم العروبة التى يجب أن تصان.

[واقع الأمة اليوم]

لقد كان الحكم بن العاص عربيا.. لكنه لم يكن مسلما.. وحين حذر ﷺ من اتخاذه وليا.. فإنه لم يكن ليُسقط حق العروبة التى علينا أن نلاحظها فيه.. فلا نبخسه حقه.

وإذن.. فلا بأس أن يُنزل المسلم الناس منازلهم شريطة أن يظل مع إخوته فى الإسلام تحت راية الإسلام.

يقول الشيخ الطنطاوى: [إن الإسلام لم يطمس الوقائع التى تجعل للعروبة مكانا ظاهرا فى دولته.

فالنبى ﷺ عربى. والعرب قومه..والقرآن كتاب عربى.. والحج إلى بلد عربى فكل مسلم مضطر بذلك إلى حب العرب وتقديرهم وتعلم لسانهم وزيارة أرضهم.

---

(١) رواه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤ وقال الهيثمى: وفيه حسين السلولى لم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

ولكن العرب ما قادوا الدنيا إلا بالإسلام.. وإذن فيجب أن يكون اجتماعهم تحت راية الإسلام.. مع صالح المؤمنين.. لا على معانى القومية الضيقة كما أشار ﷺ..

لقد أسقط الإسلام حواجز القوميات وأقام كلا من كتلتيه على عقيدة ومبدأ فقسم الإسلام الناس إلى قسمين:

الذين آمنوا والذين كفروا. ووجه الخطاب إليهم بهذا العنوان: فكان من الذين آمنوا وهم أفراد الدولة الإسلامية - رجل رومى هو صهيب ورجل حبشى هو بلال ورجل فارسى هو سلمان ثلاث رموز للدول الكبرى يومئذ.

وكان من الذين كفروا: العربى القرشى الهاشمى: عم محمد وأخو أبيه وابن جده: أبو لهب.

وكان لهؤلاء الثلاثة منزلة رفيعة فى الدولة الإسلامية.

فكان بلال وزير الدِّعاية: يعلن مبادئ الإسلام «بالأذان» خمس مرات.

وكان سلمان معدودا على لسان النبى من أهل بيت النبوة.

ونزل فى شتم أبى لهب قرآن فنحن نقرأ فى صلاتنا ذم أبى لهب][1].

وعلى أمة الإسلام اليوم أن تقيم علاقاتها الدولية على هذا الأساس تخاصم عليه.. وتصالح عليه.. قبل أن يذهب بها التقليد فى الأرض حائرة..

لقد كان من المفيد أن نقلد الأجانب فى استعمال آلاتهم.. ولكننا استمرأنا التبعية فقلدناهم فيما ترتب على ذلك من عادات وتقاليد..

ووقعنا فى الشرك المنصوب يوم بذلنا أموالنا طواعية فى ساحة الاستهلاك الواسعة.. ثم رضينا بهذا المصير.. الذى لا نجاة منه إلا بحسن فهم السنة المطهرة.. ومنها ذلك الحديث الشريف الذى كان إنذارا مبكرا لأمتنا حتى تأخذ مكانتها المرموقة تحت الشمس.

نقول مكانتها.. قبل مكانها. إن وجودها فى مكانها على الخريطة.. لا خيار لها فيه. أما مكانتها.. فلن تكون إلا بالإسلام.. الذى وحد القلوب.. فذابت

---

(١) فى سبيل الإصلاح.

الفوارق إلى الحد الذى قال فيه ﷺ:

«سلمان منا آل البيت»

«ونعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»

وقال لبلال: **«إنى سمعت خشخشة نعليك فى الجنة»**.

وكما قيل بحق: إن صلاح الدين «الكردى» هو الذى رد فلسطين للعرب.

و«قطز» التركستانى هو أقرب للمغول بدمه.. ولكنه صاح: وإسلاماه.. لما أحس بوهن فى الجيش المصرى.. فقتل.. «يلبغا» قائد التتار!!

وسوف تظل أمتنا تتخبط فى التيه.. حتى تعود أمة واحدة.. تحت راية واحدة هى راية التوحيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

*****

الفهرس

الموضوع	الفهرس

مكتبة الإيمان
المنصورة . أمام جامعة الأزهر
ت : ٢٥٧٨٨٢


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET